جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بإيتاي البارود

جماليات الخطاب الأدبي في مواعظ الحكماء النثرية

"الزمردة في المواعظ من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي"

"دراسة تحليلية"

الباحث الدكتور

جابر بن بشير المحمدي

الأستاذ المشارك بقسم الأدب والبلاغة
كلية اللغة العربية الجامعة الإسلامية
المدينة المنورة

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

يحتل الأدب العربي مكانة عظيمة بين الآداب العالمية، لما حواه منذ القدم من البلاغة والبيان، وجماليات الكلام المنظوم والمنثور، وقد عني المؤلفون قديما بالحديث عن البيان العربي، وحسبنا في ذلك الجاحظ عمرو بن بحر الذي ألف كتابه البيان والتبيين للدفاع عن البيان العربي، واستحقاق العرب صفة البلاغة، وأن القرآن لم ينزل بلسان عربي مبين على النبي الأمي إلا لما كان لقومه من قوة الفصاحة والبلاغة وجودة البيان، وأنهم امتازوا بها على غيرهم من الأمم الأخرى.

فلم تخص أمة بآية إلهية برهانا لرسول الله إلا الأمة العربية؛ لما حصل لهم من قوة العارضة والحجة، ولما حفظوا من كلامهم البليغ مأثور أقوالهم، ومحفوظ خطبهم وحكمهم عدا ما رووا من جميل أشعارهم؛ ويؤكد هذا المخزون الأدبي، تفاخرهم به، وقدرة العربي على الإفصاح، وتأليف الكلام على وجه من البيان، يسلب العقول، ويستميل القلوب، ويستثير العواطف، ويبين عن مكنون الصدور.

وقد شغل هذا البيان الدارسين المعاصرين؛ فسطروا فيه الصحف، والمقالات النقدية، فضلا عن الدراسات والكتب في البحث عن جمالياته وأسرار تفوقه ودقائق مسائله، وتباينت وجهات النظر حوله، قبولا أو بحثا في تطويره وتطويعه لمناهج معاصرة مستحدثة.

وعلى الرغم مما أحيط به – النثر الأدبي القديم– من احتفاء وإجلال، فإن بعضا من مادته بقيت بعيدة عن مجال الدراسة والبحث والتحليل؛ إما زهدا منها، أو تجاوزاً إلى غيرها مما هو أكثر أهمية في الحضور لدى المتلقي، أو احتفاء من أولئك النفر الذين جهدوا في جمع المأثور من النص العربي المنثور.

ومن تلك النصوص المهملة في الدراسة الأدبية مواعظ الحكماء، وأقوالهم، ووصاياهم، وقد جاءت مفرقة في كتب الأدب، وعني بها جمع من العلماء الأدباء، أمثال: ابن عبد ربه الأندلسي في العقد الفريد، والمتأمل لتلك النصوص يجد مادة وفيرة، ونصوصا في غاية الجمال، لما يكسوها من حسن البناء وجمال التصوير، وسلامة اللغة وفخامة العبارة، فضلا عما حوته من مضامين اتسمت بالصحة والاستقامة ووضوح الطرح، وسلامة المعتقد، وإن وجدنا أن بعضا منها ورد مرويا في عبارة موجزة، وكلمات قليلة، أحكمها قائلوها، وتلقاها الناس فيهم بالرواية والحفظ؛ ولكن ذلك لا يمنع من تأملها ودراستها، وتحليلها للتعرف على ما حوته من جماليات الخطاب في المضمون والشكل.

وقد حاولت في هذا البحث قراءة نصوص مواعظ الحكماء، للنظر في مضمونها، وسبر أغوارها، لاكتشاف الخصائص الأسلوبية في بنائها التعبيري، وسميت هذه الدراسة الخاصة بمجموعة أنموذجية لبلاغة الحكماء مما ورد في الجزء الثالث من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، والزمردة في مواعظ الحكماء فيه.

ولتكون الدراسة أكثر وضوحا في الغاية، وحصرا على الهدف منها قسمت البحث إلى:

مبحثين في فصل الجماليات، هما:

أولا: جماليات المضمون: بينت فيه مضامين أقوالهم ومواعظهم، وما حوته من الأفكار القيمة التي كانت منارا يهتدى به في طريق الحياة المتشعب الفنون.

ثانيا: جماليات الشكل: وقفت فيه على الخصائص الأسلوبية لكل من الألفاظ والتراكيب والصورة والحوار والإيقاع؛ وهي المكونات الأكثر جلاء في البناء الأسلوبي للمواعظ.

وقد حاولت أن أمنح الموضوع قدرا من العناية والتحليل على قدر المساحة المتاحة في مثل هذه البحوث، ولعلي أجد فسحة من العمر؛ لأكمل العمل فيه بحثا عن أسرار البيان في جملة واسعة من مادته المتفرقة في كتب الأدب؛ فالموضوع مهم يستحق هذا العناء من العمل والجهد.

وأسأل الله التوفيق والسداد

تمهيد

ينقسم الأدب قسمين: شعر ونثر، والنثر "يطلق على الكلام الفني البليغ الذي يرسله قائله أو كاتبه إرسالا بلا وزن ولا قافية وهو بهذا المعنى يقابل فنا قوليا آخر هو النظم أو الشعر المنظوم بالأوزان والقوافي"(١).

"وليس يخلو النثر من أن يكون خطابة، أو ترسلا، أو احتجاجا أو حديثا، ولكل واحد من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه"(٢)، والترسل يكون في الاحتجاج على الخصوم والمخالفين، وذكر الفتوح، والمعاتبات والاعتذارات وغير ذلك مما يجري في الرسائل والمكاتبات ومنها الوصايا، وأحاديث الوعظ، والمكاتبات بين العلماء والحكام، أو حديث الآباء إلى أبنائهم ووصاياهم لهم فيما يصلحهم ويهذب أخلاقهم، ويغرس في نفوسهم صالح القيم، وجميل السلوك.

والبلاغة في الجميع واحدة(٣)؛ إلا أنَّ لكلٍّ نوعاً من الخطاب وإن اختلفت ألفاظه، وتباينت أساليبه، لأنه يلاحظ اقتراب الموعظة في بنائها من الخطبة، ثم الرسالة حسب حال المخاطب، وفضاء النص، فإن كان الخطاب مشافهة أو جوابا جاهزا؛ جاءت كلاما مرسلا، وإن كاتب الواعظ وطالب نصيحته أجابه في صورة الرسالة واتبع رسومها، وراعى الأصول التي يبنى عليها، وقد تكون الموعظة خطبة إذا كان الخطاب فيها عاما، وليس خاصا بأحد المخاطبين.

---

(١) عبد العال محمود يونس: في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، الشركة المصرية العالمية (لونجمان، الإسكندرية، ١٩٩٦) صـ٧.

(٢) قدامة بن جعفر: نقد النثر، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤هـ صـ٩٣.

(٣) المصدر السابق صـ٩٣.

وتشترك الأنواع السابقة في النثر مع الشعر؛ "فإن الشعر كلام مؤلف، فما حسن فيه فهو في الكلام حسن، وما قبح فيه فهو في الكلام قبيح"[1] فكل ذلك يقع في النثر أيا كان نوعه.

وأحاديث الوعظ ارتقى بعض منها في بنائه حتى غدا شاعريا في جماله وحسن عبارته، ولما اكتساه من ثوب البيان والخيال، وقد جرى على ألسنة المتقدمين فصيحا بينا، جميل العبارة، لا خفاء ولا غموض فيه، تسابق المعاني الألفاظ، وتكسو الألفاظ المعاني جلال وجمالا.

وسنجد في هذا البحث صورة مثلى لأحاديث بعض من الخلفاء الراشدين، والوعاظ المشهورين، كالحسن البصري والعتبي وغيرهم، ممن استجاد الناس كلامهم فرووه، وعدوه من بليغ القول، ونفيس الكلام.

وقد حوى كلامهم جليل المضامين، وبديع الأساليب وخلا من أثر الصنعة الفنية، وتعقيد الفلسفة والتأويل واستخداماته من المصادر الشرعية، كالقرآن والحديث وكلام الحكماء، وأمدته تجارب الحكماء بجزيل العبارة، وإحكام الصنعة، وبديع المعاني.

والموعظة مأخوذة من وعظ "والوعظ: النصح والتذكير بما يقوم الأخلاق والأعمال"[2]، ويكون الوعظ ببث مجموعة من القواعد والأحكام والأصول المنهجية التي يقوم عليها تكوين الخطب الدينية، وقد يتخذ الوعظ أسلوبا سهلا يباين الخطب والخطاب الوعظي المعتاد.

---

(١) ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط ٥، ١٤٠١هـ، ج ١، ص ٩٠.

(٢) اللسان مادة (و ع ظ).

وهذا ما أردت التركيز على دراسته في هذا البحث؛ فليس مرادنا تتبع المواعظ في الخطب الطوال، وإنما النظر فيما جرى حديثا بين المتخاصمين من النصح والأجوبة في الأقوال المرسلة أو المكاتبات وجل من تكلم في هذه المواعظ عرفوا بالحكمة وسداد الرأي، والبيان، وجميل الخطاب، وتناقل الرواة كلامهم مشافهة في الأعظم والأغلب، ولذا فالحكيم هو من اتسم بالحكمة التي هي: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي، وقال النووي: الحكمة: عبارة عن العلم المصنف بالأحكام، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى، المصحوب بنفاذ البصيرة، وتهذيب النفس وتحقيق الحق، والعمل به، والصد عن اتباع الهوى والباطل، والحكيم من له ذلك.

ومن له ذلك على حد قول النووي فإنه لا شك يستطيع التعبير عن أفكاره بجلاء، وهذا ما ظهر في أقوالهم وخطبهم هنا. و.... سنتعرف عليه من خلال مبحثي الدراسة.

المبحث الأول

جماليات المضمون

المضمون هو: الأفكار التي تترجم عن التجربة في صياغة فنية محكمة مع ما يصاحب ذلك من عاطفة امتلأت بها نفس الكاتب فأعطت المضمون حيويته وإشعاعه وتأثيره في نفوس المتلقين للنص الأدبي.

ففي نقدنا القديم حدد عبد القاهر الجرجاني العلاقة بين الألفاظ والمعاني في صورة النظم ورأى أنه لا اعتداد بالألفاظ وحدها، ولا بالمعاني وحدها، وهذا هو الذي انتهى إليه النقاد الجماليون الآن الذين يرون أن الصورة والمضمون وجهان للنموذج الأدبي، والفصل بينهما غير ممكن؛ فليس هناك مضمون منفصل عن الصورة، بل هما شيء واحد؛ فالمعاني لا وجود لها حتى تصاغ، وحتى تأخذ شكلها المعين، وتبرز واضحة بكل خصائصها الفكرية واللفظية.

وكما أن الكاتب أو الشاعر الماهر هو من يفطن إلى: الأهمية الكبرى التي نعلقها على الصياغة في العمل الأدبي؛ ففي المباحث الآتية نذكر جماليات الخطاب الأدبي في أقوال الحكماء من حيث المضمون:

أولاً: الوعظ والتذكير:

يرتبط مفهوم الحكمة بإطلاق القول الصائب المحكم البنّاء المؤثر في النفوس، وقد يكون نتاج تأمل طويل في الزمن وحوادثه وتقلباته، أو تأثرا بما ورد في مصادر الدين، والموروث التاريخي؛ ففي القرآن الكريم والحديث النبوي، كلمات جرت مجرى الحكمة الدائرة على هذه الألسن وتقتضيها أحوال الخطاب؛ فلا يسع المتكلم البليغ إلا أن يقتبسها في خطابه الأدبي، أو مستنيراً بدلالتها، وقد يمنح التاريخ العام المتكلم زادا بليغاً مما ورد على ألسنة الخطباء،

أو القواد، أو الولاة، والأمراء؛ مما أنتجته المواقف والتجارب التي حواها النص التاريخي.

وإذا عدنا إلى نصوص الحكماء وجدنا جلها تداولاً نصياً لجملة من الآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية، أو توظيفاً لنصوص نثرية شاعت في الاستعمال.

ويكون هذا الإبداع – باعتباره تناصاً من نصوص أخرى – جلياً في حكم الوعظ والتذكير، كقول أبي الدرداء يعظ أهل دمشق "مالكم تبنون مالا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، وتجمعون ما لا تأكلون، هذه عاد وثمود قد ملأوا ما بين بصري وعدن أموالاً وأولاداً؛ فمن يشتري مني ما تركوا بدرهمين؟"(١).

ويحتشد في النص عدة نصوص تشير إليها ألفاظه، فضرب المثل بعاد وثمود ومنازلهم، مصدره القرآن الكريم في قوله: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾(٢).

"وعاد كانت تسكن الأحقاف في جنوب الجزيرة بالقرب من حضر موت، وثمود كانت تسكن الحجر في شمال الجزيرة بالقرب من وادي القرى، وقد أهلكت عاد بريح صرصر، وأهلكت ثمود بالصيحة المزلزلة، وبقيت مساكنها، معروفة للعرب يمرون عليها في رحلتي الشتاء والصيف، ويشهدون آثار التدمير، بعد العز و التمكين"(٣).

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ط٢، القاهرة، ١٣٩١هـ، ١٤٩/٣ -١٥٠.

(٢) العنكبوت آية ٣٨.

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق، ط١٢، القاهرة، ١٤٠٦هـ، ٢٧٣٥/٥.

ويظهر مما تقدم ما حواه عقل أبي الدرداء من استحضار النص القرآني، والوعي بالتاريخ وحوادثه، وتوظيفها في الخطاب الوعظي، وإعادة تشكيل الخطاب ليوائم موضوعه، فقط أراد التدمير بسوء المال، وعاقبة الانحراف عن الطريق السوي؛ فاستخدم الإشارة أبلغ أدوات الخطاب في تعيين المراد، ثم الاستفهام خلاصة للموعظة بقوله: "فمن يشتري مني ما تركوا بدرهمين؟".

وتأتي الموعظة في موقف آخر بصورة مباشرة، تضع المتلقي أمام نص محدد المفهوم؛ فهذا أحد الحكماء يعظ حكيماً آخر، مذكراً إياه بأحوال النفوس، وما جبلت عليه من حب الشهوات والبخل في العطاء، وأن خير مصلح لها هو: الخوف من الله ولقائه، وحديث الحكيم هنا يطلقه في بيان حسن الوقوع على المراد، وجمال التأتي للوصول إلى الغاية، حيث يبدأ حديثه بقوله:

"**اعلم حفظك الله**"؛ فاسترعى عقله، واستمال قلبه بالدعاء والحث على العلم، وهما من أساليب التشويق في الخطاب، ثم يردف في ذلك بقوله: "**أن النفوس جلبت على أخذ ما أعطيت ومنع ما سئلت**"[1]، وهذا تحليل نفسي وتربوي لطبائع النفوس، وفيه عظة للمسامح، وتشويق لما بعده من العلاج الروحي؛ فيقول: "**فاحملها على مطية لا تبطئ إذا ركبت، ولا تسبق إذا قدمت**"[2]، وفي هنا التعبير اللطيف جمال الاستعارة في "**مطية**" للخوف وملازمة الحذر، وهنا يظهر قدرة المتكلم على الجمع بين اللفظ والمعنى في صورة متآلفة تبرز الصورة المنشودة في بلاغة القول، التي أشار إليها أبو عثمان الجاحظ في حديثه عن البلاغة والتصوير، ثم يختم موعظته البليغة التي لا تقل شأنا عن سابقتها؛ فيما حوته من بلاغة القول؛ حيث يقدم النصح لعلاج الاستبطاء في

(١) العقد الفريد: ١٥١/٣.

(٢) السابق: ١٥١/٣.

العمل، والركون إلى الدنيا "**فإنما تحفظ النفوس على قدر الخوف، وتطلب على قدر الطمع، وتطمع على قدر السبب وعلاجها؛ فإذا استطعت أن يكون معك خوف المشفق وقناعة الراضي فافعل ...**"(١).

وحوى نص الموعظة هنا بلاغة الحكيم التي تَظْهَرُ جلية في تناسق الجمل، وتلاؤم العبارات، والوحدة العضوية في النص حيث تلاحمت أجزاؤه، وأسلم بعضها إلى بعض؛ فجاءت الفكرة جلية بينة دون تعقيد ولا التواء، و بخاصة إذا أضيف إلى الوضوح والتماسك، وقرب المأتى في المعاني، والخلو من الغموض، وتوشيح العبارة بالبيان في الاستعارة (مطية) "**وخوف مشفق**" والمقابلة المتكررة في النص نحو: " تطلب مع قدر الطمع ، وتطمع على قدر الطلب"، وقوله: "**مطية لا تبطئ إذا ركبت، ولا تسبق إذا قدمت**"وجاء من السمع اللطيف في تواصل الجمل نحو "**أعطيت**"، "**سألت**" "**ركبت**" و"**قدمت**"؛ فتلك مقاطع صوتية انتهت بها الجمل وأضافت إيقاعاً حسناً إلى النص، واستكملت به الصورة البالغة الروعة في النص.

وقريبٌ من هذا النص عبارة حكيم آخر: "**لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك من حيث أمرك**"(٢).

وحكيم آخر في موعظته: "**أما بعد، فإني عاهدتك على أمر، وبلغني أنك تغيرت؛ فإن كنت على ما عهدتك؛ فاتق الله ودم، وإن كنت على ما بلغني؛ فاتق الله وعد**"(٣).

---

(١) العقد الفريد: ٣/١٥١.

(٢) السابق: ٣/١٥٠.

(٣) نفسه: ٣/١٥١.

وتبرز بلاغة النص في القولين، فقد استخدم الحكيمان الإيجاز البليغ في قوليهما، وجمعا في العبارة – على وجازتها وحسن بنائها– معاني كثيرة، حيث عمدا إلى الإيحاء بالعبارة، والإيحاء إلي مرادهما دون تفصيل، وإطنابا في ذكر ما تحويه من إشارات، وزاد أسلوبيهما جمالاً ذلك السجع غير المتكلف في قوله: "**فاتق الله ودم ... فاتق الله ودم ...**" وعمدا في جملهما إلى استعمال الفعل الماضي "**عاهدتك، عهدتك، بلغني** " للدلالة على: الثبوت والبقاء على العهد، وتأكيد الخبر "**بلغني**" وكأن المتكلم قد تيقن مما وصله، وثبت لديه، ولذا استخدم في مقابل ذلك الفعل المضارع "**تغيرت**"؛ ليدل على ما علم من بقائه واستمراره في الفعل، والحال التي آل إليها، ولكن لطف عبارة الحكيم جاء في استعماله الإنشاء في فعل الأمر "**دم، عد، اتق**" وهي جمل طلبية جاءت في موطن الإشفاق على السامع، واستعمال الأمر في موضع الرجاء؛ فإحكام العبارة، والبناء الفني غير المتعمد لما جرى من الموعظة في النصين؛ يبرز بجلاء قدرة الحكماء على صَوغ عبارتهم وأقوالهم وخطبهم في أساليب الجمال المعنوي والشكلي.

وقد تأتي الموعظة على لسان الحكيم في نص أدبي يتسم بالتفصيل، والعناية بالأسلوب، بانتفاء العبارات والجمل الوصفية، وتكتمل في النص أدوات البيان والتصوير وجماليات التشكيل الأسلوبي، وجماليات الرد؛ فالموقف محكي في رواية موجزة، يَظْهر منها المرويُّ عنه مُشَخَّصاً في استهلال النص، وقد رسم الراوي المشهد القصصي بقوله: "**ودخل الحسن بن أبي الحسن على عبد الله بن الأهتم، فرآه يصوب بصره في صندوق في بيته ويصعده، ثم قال: أبا سعيد "الحسن"، ما تقول في مائة ألف في هذا الصندوق لم أؤدِّ منها زكاة، ولم أصل منها رحماً؟**".

وهذا المشهد يرسم أمام المتلقي الموقف والتجربة التي بعثت أبا **سعيد الحسن أبي الحسن**" أن ينشئ عبارته البليغة؛ فنحن أمام موقف أدبي مكتمل البناء؛ فهناك تجربة، ومبدع ومتلقٍ ونص أدبي مكتمل البناء، صالح للدراسة والتأمل والتحليل، وهوا على وجازة في القول، ودقة العبارة بناء فني تكتمل فيه جماليات التشكيل الفني في الصورة المؤدية للمعاني المرادة، وتحقيقه الوحدة البنائية الفنية في النص، حيث تلاحمت أجزاؤه وتناغمت صوره حتى تخلصه إلى الغاية النفعية من النص؛ ألا وهي العظة للأبناء الذين أدركوا مالاً أفنى عمر والدهم جمعاً، ولم يؤد حقه، وأسلمه إليهم وافياً غير منقوص، وما أنقصه منه بمنع زكاته أو حقوق الرحم فيه يستوفيها الله منه.

ولذا يبدأ قول أبي سعيد الحكيم بعبارة: "**ثكلتك أمك**" تعبيراً عن اللوم، والحزن، ثم يتبعها بسؤاله، "**ولمن كنت تجمعها؟**"؛ فيأتي الجواب مادياً لا روحانية فيه " **لروعة الزمان، وجفوة السلطان، ومكاثرة العشيرة**"، وتلك أسباب مقنعة، وواقعية، ولم يعاتبه الحكيم على أي فيها، ثم ينتهي هذا المشهد بموت ابن الأهتم، وتبقي العظة حية في نفس أبي سعيد، لبعض من حضر دفنه بقوله: "**انظروا إلى هذا المسكين، أتاه شيطانه فحذره روعة زمانه، وجفوة سلطانه، ومكاثرة عشيرته... انظروا كيف خرج منها مسلوباً محروماً...؟**"

وكان اختياره لزمن الوعظ موفقاً، وزاده جلالاً وحسناً، تلك العبارة التي وصف بها حال الميت، وما كسا به عبارته من التوازن في الجمل، والمساواة بينها، وما أجراه من السجع في فواصلها والاستعارة في قوله "**خرج مسلوباً**" فعبر عن انتهاء اللذة المنقضية بالسلب، وليس سلباً على الحقيقة، وإنما انتقال من دار بنعيمها إلى حال أُخرَى لها نعيمها الخاص، أو العذاب فيها على ما فرط في نعيم الأولى، ولازم التكرار المؤكد للمعاني، وتقريرها بإعادة عبارة

ابن الأهتم، وتكراره "**انظروا**" وهذا أبلغ في العظة والاعتبار لقرب المشهد، وحصول الوعي بالواقع وحضوره ماثلاً في النفس.

ثم يختم الراوي السرد في هذا المشهد بالجزء الأخير من خبر الحكيم حين التفت إلى الوارث فقال: "**أيها الوارث لا تخدع كما خدع صويحبك بالأمس...، أتاك هذا المال حلالاً، فلا يكون عليك وبالاً، أتاك عفواً وصفواً، ممن كان له جموعاً منوعاً، من باطل جمعه، ومن حق منعه، قطع فيه لجج البحار، ومفاوز القفار، لم تكدح فيه بيمين، ولم يعرق لك فيه جبين**"(١).

وقد استخدم البليغ هنا تقنيات الأسلوب في أداء معانيه لتفي بغرضه لتحذير الأبناء من عاقبة المنع التي حاقت بأبيهم، ونلاحظ كيف حوى النص الوصف الدقيق لحالة جامع المال، وطريقة الاكتساب؛ فحاله مع الأبناء مجيء المال سهلاً، وغنما ربيحاً ثميناً صافياً لا شقاء معه، ووباله على جامعه، فقد جمعه من باطل، ومنع حقه لمستحقه، ولم يكتف بهذه العبارة المؤشرة إلى خلاصة عرق الكدح والجمع له، وإنما وصف معاناته؛ فجاء بالجمل المسجوعة المشحونة بالصور؛ لتعبر عن تلك المعاناة والشقاء في جمع المال "**قطع فيه لجج البحار**"، "**ومفاوز القفار**" وهذه عبارة شعرية الصورة؛ فإذا جمعت مع الجمل السابقة اتضحت فيه قدرة المبدع على التعبير عن مراده بأسلوب يرتقي فيه عن الخطابة المباشرة بل يعمد إلى الخيال التصويري "**أتاك عفواً**"؛ فاستعار "**أتاك**"؛ لحصول المال، والإتيان غير الطلب؛ فكنى به عن سهولة الكسب، ووفاء المطلوب، وجاءت تقنية السجع؛ موفية للمعنى، وإيقاعه بجرس موسيقي بديع تضافر مع إيقاع الكلمات مفردة؛ ليحمل المستوى الصوتي للنص أبعاداً دلالية تظهر في "**جموعاً منوعاً**"، "**من باطل منعه، ومن حق منعه**"، " **لا تخدعن كما**

(١) العقد الفريد: ١٤٩/٣.

خدع صويحبك" وهكذا "**لجج البحار**" **ومفاوز القفار**" وتلك إيقاعات ذات جرس موحٍ بما تحمله من شحنات تعبيرية كان للإيقاع أثر قوي في إيصالها للمتلقي.

ونجمل القول بأن المواعظ في كلام الحكماء، لم تأت في أسلوب الوعظ المألوف، ولم يلبسها الأديب عبارة الوعاظ والدعاة في اتكائهم المباشر على التفاعل والتداول النصي مع نصوص القرآن الكريم مباشرة أو حديث الرسول (ﷺ)، وكلام الصحابة رضوان الله عليهم؛ وإنما جاءت خطابات أدبية موجزة ورسائل موجهة بأسلوب المبدعين من الأدباء، واكتملت فيها صورة البناء الفني للنص، وأبدع الحكماء في أقوالهم المأثورة وظهر في كلامهم التناص مع النصوص الشرعية من القرآن أو السنة ولكنهم استقوا منها معانيهم، وأعادوا تشكيل عباراتهم لترقى في صلة أدبية مع مادتها من القرآن والموروث، وبيانها من بليغ قولهم، وحسن أدبهم.

ثانياً: التربية الروحية وتهذيب الأخلاق:

عني الحكماء في وعظهم الأبناء والعامة بغرس القيم التربوية في المخاطبين، وبعث روح الاقتداء فيهم، وتقديم النصح والتوجيه في موضوعات شتى، حيث حوت مدونة الحكماء الكثير من النصوص في الوعظ، مستهدفين في إشاراتها ومحتواها لفت أنظار المتلقين إلى غايات نبيلة بحسن العمل بها؛ واتخاذها منهجاً سلوكياً في حياتهم وطريقاً إلى سعادتهم في الدارين .

ومن مواعظ الحكماء البلغاء قول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في وصيته لابنه عبد الله في رسالة مكتوبة، بدأها بأدبيات الكتابة؛ **فاستهلها بأما بعد**، ... ثم أعقب هذا الافتتاح الخطابي، بعبارات موجزة تلخص مضامين إسلامية، وقيماً خلقية غرسها الإسلام في نفس عمر، وأودعها الخطاب في روع ابنه عبد الله

فقال: "**فإن من اتقى الله وقاه، ومن اتكل عليه كفاه، ومن شكره زاده، ومن أقرضه جزاه**"(١).

وهذه الجمل الأربع تلخص مراتب الإيمان، وأنواع التوحيد المطالب بها العبد المؤمن؛ فتكرار اسم ذي الجلالة "**الله**" وضميره يشير إلى الإيمان بالرب وهو: **التوحيد والمعرفة بالذات الإلهية**، والأفعال الأربعة **الأخرى** "**اتقى، شكر، اتكل، أقرض**"؛ إشارة إلى مطلب الإيمان في توجهه إلى الله في أفعاله ومقاصده، ولكنه زاد كلامه إيماءً بليغًا؛ بإيرادة "**أقرضه**"؛ ليشير إلى جملة الأعمال الصالحة؛ فليس الإقراض هنا محصوراً في المال، بل يتجاوزه إلى كل عمل صالح.

ثم يتبع هذا الخبر بطلب إنشائي حمل التوجيه والتربية الروحية في قوله: "**فاجعل التقوى عمارة قلبك وجلاء بصرك**"، وعمارة القلب وجلاء البصر ليس من باب التكرار المعنوي، فهما كلمتان موجزتان، حملا معاني كثيرة، من عمارة القلب بالإيمان والتقوى، وطلب مرضاة الله، وحسن الطاعة، والتزود بالأعمال الصالحة، وما يترتب على الإيمان، وتحقيق مراتبه، وجعل الكلمة الأخرى "**وجلاء بصرك**" إشارة إلى المنفعة المتحققة من حصول التقوى وعمارة القلب بها، وما يترتب على لزوم الطاعة وتربية النفس بها.

ويُتْبع الخليفة الزاهد العابد عمر بن الخطاب قوله السابق؛ بجمل منفية تؤكد المعنى، وترسم النهج القويم في العمل ويؤكد معانيه بأداة التأكيد إنّ حيث يقول: "**فإنه لا عمل لمن لا نية له ولا خير لمن لا خشية له، ولا جديد لمن لا خلق له**".

---

(١) العقد الفريد: ١٥٥/٣.

ويوجز الخليفة لابنه سبل العمل وصلاحه؛ فالعمل مرهون بالنية، والصلاح بالخشية، وتجدد العافية الحسنة في الأمور كلها حسن الخلق؛ فأعطى درساً أخلاقياً متكامل البناء مبنى ومعنى في وعظه لابنه.

وما حرص عليه عمر (ﷺ) نجده عند على بن أبي طالب في كتابه إلى ابنه الحسن وابنه محمد بن الحنفية (ﷺ) أجمعين ونتجاوز صدر الرسالتين وما حوتا من أصول المكاتبات من رسوم وتقاليد فنية؛ لنلقي الضوء على المضامين التي تحدث عنها الخليفة الراشد عليٌّ فقد جعل نصب عينيه في الحديث إلى أبنائه. عدة أمور هي :

أولاً: صفة الدنيا الغرور وأهلها فهم فيها "**غرض الأسقام ورهينة الأيام،... وتاجر الغرور، وأسير المنايا وقرين الرزايا، وصريع الشهوات، ونصب الآفات، وخليفة الأموات**"(١).

ونلحظ دقة الإمام علي (ﷺ) في اختياره المعاني الملائمة لموضوعه، وما كساه به من الألفاظ والحلية البلاغية، حيث الجمل القصيرة المكثفة للمعني والدلالات، وكل جملة من العبارات السابقة تحمل دلالة ومستويات من التعبير تمنح المتلقي مساحة من التأمل والاستسلام إلى روضة البلاغة التي أبدعها المنشئ.

ثانياً: التفكر في المآل والمصير، وإدراكه (ﷺ) ما آل إليه من قبله، واتعاضه بمصابهم، مما يزهده في الدنيا، وحب البقاء فيها، فدفعه ذلك إلى محض أبنائه النصيحة؛ لأن كلاً منهما، بعض منه، فيقول: "**فوجدتك يا بني**

(١) العقد الفريد: ١٥٥/٣.

بعضي، بل وجدتك كلي" وفي هذا الترقيق للموعظة تشويق للسامع / المتلقي؛ لاستقبال ما سيأتي من كلام المبدع، فهو يدفعه إلى الانشقاق والتلهف لما سيقول من الخبر، فعند ذلك عناني من أمرك ما عناني من أمر نفسي"(١).

ثالثاً: الوصية والنصيحة المسداة إلى الأبناء وقد ركز فيها على الاعتصام بحبل الله، والتقوى، وذكر الله وعمارة القلب به، ونجد أن علياً (ﷺ) التقى في هذه النصيحة بعمر بن الخطاب (ﷺ)؛ حيث جعلا لب توجيههما لأبنائهما في الحث على التقوى، والخوف والخشية من الله، والتزود بالعمل الصالح لدار المعاد، وأنه لا حياة لقلب العبد بغير الطاعة، والموعظة، والزهد في الدنيا يقول على بن أبي طالب لابنه الحسن: "**أَحْيِ قلبك بالموعظة، ونوّره بالحكمة، وأمِّنْه بالزهد، وذللـــه بالموت**"(٢)، ويلحظ هنا ما جمعه في هذه الجمل من أسباب حياة القلوب؛ فالموعظة والحكمة والزهد وتذكر الموت، إذا دخلت قلب المؤمن رققته، وبعثته على العمل، ووثقت حبله بالله وزادته عظة وعبرة.

رابعاً: التربية العلمية، وغرس قيم التعلم في نفس الابن، وقلبه، فيوجهه إلى سبيل العلم، وطريقه "**دع القول فيما لا تعرف، والأمر فيما لا تكلف، ولا خير في علم لا ينفع**"(٣)، وهكذا يمزج علي (ﷺ) الوعظ، والتربية، فيعنى بتربية الروح وتهذيب الأخلاق، ويجعل من النتيجة المرجوة من لزوم الصلاح والأدب جزءاً من العمل؛ فلزوم طريق الخير والفلاح لا يكون إلا بالعلم والمنافع، واختيار الصديق الصالح، فقد نبه ابنيه (ﷺ) جميعاً إلى حسن الصحبة، ولزومها، ومباينة أهل الباطل، مع جهاد النفس، والأمر بالمعروف والنهي عن

(١) العقد الفريد: ٣/١٥٥.
(٢) السابق: ٣/١٥٦.
(٣) نفسه: ٣/١٥٦.

المنكر، فقال في ذلك "**وامر بالمعروف بيدك ولسانك، وانْه عن المنكر بيدك ولسانك، وباين من فعله، وخض الغمرات للحق، ولا تأخذك في الله لومة لائم،... واعلم أن أمامك طريقاً ذا مسافة بعيدة، ومشقة شديدة، وأنه لا غنى لك فيه عن حسن الارتياد مع بلاغك من الزاد**"(١).

ثم يصف أهل هذا المسلك الزاهد، فيكنى عن أهل اليقين، والمعرفة بالله، ومن يعين على الحق، والنصيحة بمصاحبتهم، فهم يحملون المرء على الطاعة، ويعينونه على صلاح النفس، ولزوم طريق الحق فيقول: "**فإن أصبت من أهل الفاقة من يحمل عنك زادك فيوافيك به في معادك فاغتنمه، فإن أمامك عقبة كؤوداً لا يجاوزها إلا أخف الناس حملاً**"، وفي ذلك كما تقدم فيه إشارة إلى الصبر على الأذى، واحتساب الأجر عند الله، وعند الله تلتقي الخصوم، ولكنها تربية روحية، تغرس في المتلقي حسب الخير والصبر على ما يلقاه في رحلته إلى الآخرة، ويزيد هذا المفهوم يقيناً بقوله "**وإنما المحروب(*) من حرب دينه، والمسلوب من سلب يقينه، واعلم أنه لا غنى يعدل الجنة، ولا فقر يعدل النار...**"(٣).

وفي هذا النص الكثير من البلاغة ووسائلها، وأدواتها؛ فقد استخدم المتكلم القصد؛ بإنما للتأكيد، وقصر المسند على المسند إليه، وزاد فيه التوكيد بأن والجملة الاسمية، وتلك المؤكدات جاءت ملائمة لموقعها في الكلام؛ فالمقام ليس مقام المنكر، ولا خالي الذهن، وإنما أنزل المخاطب منزلتيهما؛ ليوقع في نفسه

---

(١) العقد الفريد: ١٥٦/٣.

(*) المحروب: من حُرب وسلب ماله "وهو لفظ على سبيل الاستعارة، فالحرب النزع بالقوة، واستعير هنا للسلب ونزع الحق. "اللسان" مادة "ح ر ب".

(٣) العقد الفريد: ٣/ ١٥٦.

أهمية المعنى، وتأكيده لما ينأى به عن الشك والتردد في القبول، والإفادة من المضامين التربوية في حديث علي بن أبي طالب (ﷺ).

خامساً: التربية بالقيم الخلقية: وهذا شأن آخر وغرض من أغراض الحكيم في توجيهاته التربوية، فهذا عبد الملك بن مروان يعظ أبناءه بقوله: "**كفوا الأذى، وابذلوا المعروف، واعفوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سئلتم، ولا تلحفوا إذا سألتم، فإنه من ضيق ضُيق عليه، ومن أعطى أخلف الله عليه**[1].

ويحوي النص إشارة إلى جملة من القيم الخلقية التي أراد عبد الملك أن يتحلى بها أبناؤه، فهي من مكارم الأخلاق، واستخدم فيها الجملة الطلبية "**الأمر والنهي**" المناسبة المقام، حيث يتطلب الأمر العزم على الفاعل أن يفعل، والنهي لزوم الكف عن الفعل، والمقام مقام التربية والتوجيه الذي يوجب الحزم وبذل التضحية مشفوعة بما يلائمها من الجد وعدم التراخي، والطلب بصورة ملزمة لا تقبل الليونة والضعف.

ونجد نحواً من ذلك في قول الأشعث بن قيس لبنيه "**يا بني لا تذلوا في أعراضكم، وانخدعوا في أموالكم، ولتخف بطونكم من أموال الناس، وظهوركم من دمائهم**"[2]؛ فيرشد أبناءه إلى القيم الأصيلة عند العرب قبل الإسلام، وإلى مكارم الأخلاق بعد الإسلام، وما جاء في حديثه هو إيجاز بديع لتلك المكارم من الشيم والأخلاق؛ فحماية العرض، وسلامة الطوية، والترفع عن الأذى، والنأي عن الظلم، وعدم أكل أموال الناس بالباطل، وتحريم دمائهم، أسباب العدل، وتجنب المهالك والوقوع في الردى.

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ١٥٤.

(٢) السابق: ٣/ ١٥٤.

ولا يكتفي الأشعث بهذا الحث البين على لزوم الخلق الكريم، وإنما يحدد لأبنائه سبل العزة، والحفاظ على رفعة المقام، وحصول المطلوب دون التردي فيما يدنس المرء من فساد الخلق، أو ما يوجب الصنعة فيقول: "**وإياكم وما يعتذر منه، أو يستحي، فإنما يعتذر من ذنب، ويستحي من عيب**"(١)، ثم يعقب هذا القول ببيان ما يصلح به الحال؛ فيرشدهم بقوله: "**عند الحاجة عن المسألة، فإنه كفى بالرد منعاً، وأجملوا في الطلب من الله؛ حتى يوافق الرزق قدراً**" وهذه قيم إنسانية تتعلق بحفظ الأموال والأنفس، أما الأموال فتصلح للاستغناء بها عن المسألة، وحفظ النفس من اللجوء عن طلب الخلق، وقسرها على الطلب من الله وحده ارتقاء بالنفس عن الوقوع فيما يدنسها، ويعرضها للأذى.

ويختم الأشعث وعظه لبنيه بالتنبيه على ما يجمل الحفاظ عليه من قيم المجتمع، وبنية الأسرة، فيرشدهم إلى الحفاظ على الأعراض والنساء، وحسن السمعة، فيقول: "**وامنعوا النساء من غير الأكفاء، فإنكم أهل بيت يتأسى بكم الكريم، ويتشرف بكم اللئيم**"(٢)، ثم يأمرهم بالجماعة والاعتصام بها، وترك ونبذ الفرقة، والخروج على جماعة المسلمين، وذلك بقوله: "**وكونوا في عوام الناس ما لم يضطرب الحبل، فإذا اضطرب الحبل فالحقوا بعشائركم**"(٣)، ويجعل من الحفاظ على الوحدة قيمة إنسانية تحفظ للمرء قوته وسلامته فإما أن تكون في عامة الجماعة، أو جماعته القبلية خاصة.

والأشعث في هذا الكلام البديع ينوع في أساليبه فيستخدم الجملة الطلبية مرة "**لا تذلوا في أعراضكم... وانخدعوا في أموالكم**"، والجملة الخبرية في

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ١٥٤.

(٢) السابق: ٣/ ١٥٤.

(٣) نفسه: ٣/ ١٥٤.

موضع آخر نحو: "**فإنما يعتذر من ذنب، ويستحي من عيب**"، ولكنه يكثر من الجملة الفعلية الإنشائية بالأمر والنهي ويحصر مؤكداته في "**إن وإنما**" ويلحظ أنه لم يورد جملة اسمية في كلامه؛ لعل السبب أنه في مقام التوجيه الذي يقتضي الأمر والنهي والتوكيد والقصر ونحوهما من الأساليب التربوية، وتقل فيه الأخبار المطلقة وتفيض بلاغة الأشعث بهذا النوع من التنبه الدقيق للغايات الأسلوبية الموافقة لحال المخاطب ومقتضى الطلب في الخطاب.

ثالثاً: السياسة والوعظ بإحسان السيرة وصلاح النفس:

لم يكن حديث الخلفاء ممن أوتوا البيان، وبلاغة الكلام، وأدب المنطق، ومنهم الحكماء من الوعاظ الذين صدرت أقوالهم في أحاديث تروى جمال منطقهم وحسن أدبهم وسلامة رؤاهم لواقعهم ومعاشهم وحسن صحبتهم لولاة الأمر من الخلفاء والأمراء.

ونلحظ في أحاديث الوعظ، والمقولات البليغة عند غير الخلفاء منهم، أنهم لم يبدأوا بها، وإنما جاءت جواباً على طلب من الخلفاء ومن في حكمهم من الأمراء، ويشير ذلك إلى صلاح الأمراء، وما بعثتهم به نفوسهم على إصلاحها؛ فوجدوا أن العارفين بالله هم من يحسنون ذلك، بما يملكون من العلم والأدب، ومجامع البلاغة، وحسن الحديث، والإقناع والتأثير.

وقد يكون الواعظ والمتكلم الأول الخليفة؛ فعمر بن الخطاب يكتب إلى عتبة ابن غزوان عامله على البصرة، يأمره بلزوم العدل، والتواضع وألا تطغه الإمارة فتقوده إلى الظلم، وألا ينساق في شهوات النفس؛ فتوقعه في السقطات التي لا خلاص من تبعاتها إذا كانت ممن وسد الأمر ووليه، ويتوخى منه التوقي والترفع عما يضر بالسياسة وتدبير أمر العامة: وفي كل ذلك يقول عمر (ﷺ)

لعتبة "**أما بعد فقد أصبحت أميراً تقول فيسمع لك، وتأمر؛ فينفذ أمرك فيالها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك، وتضعك على من دونك، فاحترس من النعمة أشد من احتراسك من المصيبة، وإياك أن تسقط سقطة لا لعًا لها- أي لا إقالة لها- وعثرة لا تقالها**"(١).

ويلحظ في توجيه عمر لعتبة العبارة المشفقة، والتلطف في الوعظ والتذكير، مع ما حواه حديثه من رسم نهج قويم في تدابير السياسة وحفظ الحقوق، والبعد عن كل ما يسيء إلى الرعية، ولكنه في هذا الكتاب الموجز لا يطنب في الكلام، ويرسل العبارات الموجزة التي تكفي عن الإشارات المفصلة، ويجعل أسلوبه متضمناً مراعاة حال المخاطب، فعتبة أمير، ويمنحه الخليفة حلية الإمارة "**فقد أصبحت أميراً تقول فيسمع لك، وتأمر فينفذ أمرك**"(٢).

ويستخدم في هذا المقام الجملة الفعلية "**أصبحت، تقول، يسمع، ينفذ، والمزاوجة بين المضارع والماضي**" مما يدل على بصر عمر (ﷺ) بما يحسن به الخطاب؛ فلثبوت الأمر "**أصبحت**" إذا أصبحت الإمارة واقعاً، ولحال الأمير معها "**تأمر، ينفذ، تقول، يُسمع**" إشارة إلى تجدد حاله في كل موقف يشعر فيه بعز الإمارة، ورفعة القدر، وما منح من الفضل، ولكن الموقف يتطلب من الخليفة أن ينبه الأمير على خطورة الأمر، فهذه النعمة المحدثة، قد تغير السلوك، وتدفع إلى فعل ما يوجبه الإسلام في شخصية الولاة، وما يفترض فيمن ولي الأمر من التجرد والنقاء، والتخلص من الهوى وعدم الرضوخ له، والأمر هنا يقتضي الحزم، وإعطاء العبارة حقها من جزالة اللفظ، وصلابة الكلمة، وقوة الجملة بتوكيدها وتكرار ذلك في الكتاب، ونتأمل قول عمر (ﷺ)؛ لنجده يستخدم

(١) العقد الفريد: ٣/ ١٥١-١٥٢.

(٢) السابق: ٣/ ١٥١.

عبارات "**فاحترس**" فعل الأمر وما فيه من الطلب، ويستخدم التحذير "**بإياك**" في "**وإياك أن تسقط**" ويقترن هذا بتقبيح الحسن، والتنبيه على الحذر مما يصغر في عين الأمير من صغائر الأمور التي تعود كبائر لا إقالة لعثرتها.

وتلك بلاغة عهدت في أقوال عمر بن الخطاب، وهو العربي البليغ، وقريب منها قول حفيده عمر بن عبد العزيز في كتابه إلى رجاء بن حيوة يعظه فيقول: "**أما بعد، فإنه من أكثر من ذكر الموت اكتفى باليسير، ومن علم أن الكلام عمل قل كلامه إلا فيما ينفعه**"(١).

ويرشد عمر بن عبد العزيز في عبارته الموجزة رجاء بن حيوة إلى انتهاج القصد في النهج، وأن ذكر الله خير معين على العمل الصالح، ويبين طريق الصواب في ذلك بأن يقلَّ الكلام إلا فيما ينفع، وإذا رأينا سيرة ابن حيوة وجدناه عالماً ومحدثاً ومستشاراً لخلفاء بني أمية، وقد بلغت مشاركة رجاء بني أمية الرأي وتأثيره السياسي الذروة في عهد سليمان بن عبد الملك، "**فقد اتخذه وزيراً، وكان صادقاً في مشورته له، يستشيره في كثير من الأمور والقضايا؛ فوصف بأنه الوزير العادل، والإمام القدوة، ومن جلة التابعين**"(٢).

فكان خطاب عمر بن عبد العزيز له موافقاً لمقتضى حاله في مجالسته الخلفاء ومشورتهم له، وما كان له من التمكين لدى الأمويين، وفي ذلك الوعظ خطاب سياسي للوزير الصادق العادل رجاء بن حيوة، يعالج فيه عمر بن عبد العزيز جوانب نفسية عند من يتولى هذا، ومن يتقلد منصب الوزارة، ويتحمل مسئولياتها، ويخشى تبعاتها؛ فالصدق، ولزوم الذكر للموت يمنعان المؤمن من الولوغ فيما يشين من الخلود إلى الملذات، والركون إلى الشهوات، وذلك معين

(١) العقد الفريد: ٣/ ١٥١.

(٢) الحلية: ٥/ ١٧٠، والدولة الأموية، "عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار": ٢/ ١٨٩.

على العدل، وفي نظرة أخرى يعمد إلى المهمة الملقاة على ابن حيوة، وهي المشورة في السياسة والشأن العام، فجاءت عبارته الثانية "**ومن علم أن الكلام عمل قل كلامه إلا فيما ينفعه**"(١) وهو يحذره هنا من آفات اللسان، وسقطات الحديث، امتثالاً لقوله (ﷺ) لمعاذ "**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوهم في النار أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم**"(٢).

ولكنه وظفه توظيفاً حسناً حين جعله معياراً في حسن عمل المستشار أو الوزير لما يكون فيه من طلب المشورة، وما يترتب عليها في الولاية من إقرار الإمام العادل على فعله، أو تأييده فيما صنع تقرباً إليه، وهذا هو النهج الإسلامي في النصح لولاة الأمر، وللمسلمين عامة، وهو ما أراده عمر (رضي الله عنه).

ويلحظ ما حظي به كلام عمر بن عبد العزيز من الإحسان في القول، وبلاغة المنطق مع وجازة العبارة؛ **فاستخدامه للخبر وجملة الشرط جعل من الكلام جملة مؤكدة المضمون ومؤسسة على البرهان القاطع والتحليل والاجتماع**، والجملة "**الشرطية**" جملة خبرية مقيدة تقيد مخصوصاً وأريد بهذا القيد تقوية الحكم في التركيب(٣).

وفي جواب للحسن البصري على كتاب لعمر بن عبد العزيز فيه "**اجمع لي أمر الدنيا، وصف لي أمر الآخرة**" فكتب إليه الحسن "**إنما الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط، ونحن في أضغاث أحلام**".

فهذا الجواب البليغ حوى عدداً من المعاني الدقيقة في وصف الدنيا والآخرة، وحال الناس في محياهم من حيث اغترارهم بحسنها فشبه الدنيا

---

(١) العقد الفريد: ١٥١/٣.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني: ١١٥/٣.

(٣) مفتاح العلوم للسكاكي: ٢١٧/١.

بالحلم، والآخرة مثل اليقظة، وأحداث الدنيا وزينتها وما يصحبها من الأذى، موعظة بليغة؛ استخدم فيها القدرة اللغوية في إيجاز القول في جمل أشبه بالكلمات، ويتبعها بجمل مسجوعة متوازية، زينها إيقاعها البديع، والموازنة بين فواصلها فيقول "**ومن حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر بصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل**"(١).

والمتأمل للجمل السابقة يجد الأسلوب متنوعاً بين الإرسال والسجع، مع احتفاظ الحسن بالموازنة بين الجمل في القصر، وحبك العبارة الوجيزة لتحوي معنى واحداً يحمل إيحاءات بعيدة، يمد بها التركيب والعبارة المنسوجة في تأليف محكم، فقوله: "**من حاسب نفسه خسر ضمنه ما تقتضيه محاسبة النفس، وبعثها على الفعل والانتهاء**"، وفي الجملة الأخرى "**ومن غفل عنها خسر**" مقابلة للجملة الأولى، موضحة لها؛ فاقتضاء الخسران في الغفلة واتباع الهوى، وطلب الشهوات يقابله العلم، والمحاسبة، والتفكر، وتقييد العواطف، والتذكر للمال، وحسن العمل المفضي إلى الربح والفوز، وقد اتبع هذين الحالين في النتيجة الحاصلة منهما بقوله "**من نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل**"، ثم يرتب على هذا المعنى عدة جمل بفواصل مسجوعة منغمة تفعل بإيقاعها ما تؤثر به في بنائها، وترتيبها، وإحسان تأليفها، فيقول: "**ومن حلم غنم، ومن خاف سلم ومن اعتبر بصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل**" (٢)، ويلحظ كيف رتب الحسن كلامه في منطق عقلي؛ بجعل الشرط قيداً على الحكم، وتأليفه الجمل تأليفاً يضمن لها حسن التأليف والإحكام، مع تجانسها في

(١) العقد الفريد: ٣/ ١٥٢.
(٢) السابق: ١٥٢/٣.

المضامين، وما حملته من التكرار في "**علم، وفهم، وبصر، واعتبر**"؛ وهو مفيد هنا توكيد المعنى، والوصول إلى الغاية المبتغاة، وهي العمل الصالح "**ومن فهم علم، ومن علم عمل**" وهذا النوع من التأليف للجمل تتحقق به بلاغة التركيب فالجمل إذا تداخلت وتنامت في التركيب؛ أدت إلى تلاحم بعضها ببعض حتى تكون كالجملة الواحدة توضع في النفس وضعاً واحداً[1].

والخطاب عند الحسن البصري في جوابه لعمر بن عبد العزيز يمتزج فيه الوعظ بالنصيحة النافعة، ولا نعلم زمن الكتاب، هل كان قبل الخلافة أو بعدها، ولكنه يحمل في طياته حرص عمر (ﷺ) على التذكير بما ينفعه في إصلاح الأمر وسياسة الخلافة، وحرص الحسن على أن يمنحه من حكمته وبصيرته ما مؤداه العمل للآخرة، وجعل الدنيا وحسنها وزخرفها سبيلاً إلى الآخرة، ويوجهه من طرف خفي، وبعبارة لطيفة إلى سبل النجاة، وطرق الخلاص من تبعات الأمر، وأن العلم والتبصر والفهم تفضي إلى العلم بالعمل السديد، وحفظ الأمر منوط بالتزام المرء إصلاح النفس، فهو يختم له رسالته مشيراً إلى طريقة العلم والفهم والعمل بقوله: "**فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك، واعلم أن أفضل الأعمال ما أكرهت النفوس عليها**"

وفي هذا الجزء من النص تحديد دقيق لمعالم الطريق في الأخذ بالعدل بإسقاط حظوظ النفس في الولاية، وأن يجعل من يتولى أمر الناس إحقاق الحق نصب عينيه، مع التثبت، وتجنب الظلم، والتمادي في أسبابه كالغضب، وحب الراحة والدعة ولزوم العمل مع المكاره وإن أبت النفوس ذلك؛ تحقيقا للإصلاح والعدل.

---

(١) ينظر: محمد محمد أبو موسى، دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ١٤٢٩هـ ص٣٥٠

وما يقدمه الحسن هنا وثيقة سياسية صالحة للدراسة والتحليل في واجبات من يكلف بالقيادة، والتنصب لمراعاة الحقوق والسيادة في الإمارة والخلافة.

ونخلص مما تقدم في تشكيلات المضمون في مواعظ الحكماء من الخلفاء، والأمراء والعلماء، والبلغاء من الوعاظ والأدباء، أن جملة ما يتسم به المضمون عدة أمور هي:

أولاً: تنوع المضامين والأفكار في خطاباتهم الوعظية، فقد رأينا ما اشتملت عليه المواعظ من فنون القول في التذكير بالآخرة والتزهيد في الدنيا، وقد اتخذوا ذلك مسلكاً في نصحهم وأقوالهم في عامة خطابهم الوعظي، فلا يخلو موقف خطابي إلا وقد تضمن تذكيرًا وتزهيدًا، وذلك هو الغرض العام، والوعاء النثري للمحتوى، والمقصد الأصل في مقولاتهم.

كما تضمنت توجيهات تربوية كان المرسل فيها الأب المشفق، والمرسل إليه الابن المعني بالنصيحة والتهذيب لأخلاقه، وغرس القيم في نفسه وحثه على التزام مكارم الأخلاق المفضية إلى اكتساب العز والسيادة، وهي سبيل للحفاظ على شرف النسب وكرامة السؤدد.

وبدا الحكماء في توجيهاتهم لأبنائهم مربين، يرسمون في أقوالهم مبادئ تربوية تمثل توجهاً تربوياً مؤثراً في السلوك، وناجعاً في خلق قيم الصلاح في الروح وسلامة النهج، وبناء الثقة في النفس، وتعلم وسائل بناء الثقة في الذات.

وتلك المقولات يمكن جمعها وتحليلها في دراسات تربوية لتكون مناراً في طريق الإصلاح والبناء، ولترتبط بثقافتنا الأصيلة، ومنهج التراث القويم.

وتضمنت تلك الخطابات الوعظية محتوى طريفاً لم يلتفت إليه الدارسون وهو الوعظ السياسي طلباً للإصلاح والتقويم للولاة، ولكن الطريف هنا أن الخلفاء عمر بن الخطاب، وعمر بن عبد العزيز، هم من يكاتب الحكماء،

والعلماء في طلب آرائهم ووعظهم، وهذه ظاهرة تمثل نهجاً سياسياً في الحكم، ولا أظن أن هذا النوع من الترقي بالنفس إلى مدارج الكمال عند الخاصة من الساسة وغيرهم، قد عرف في تاريخ أمة غير حضارة الإسلام، فواقع من منح السيادة الترفع في خلقه، طلب النصيحة عدا المشورة فيما تقتضيه أمور السياسة وشؤون الحكم الآنية؛ أما أن يطلب التذكير والوعظ، وما يفيد في إصلاح الذات والعمل، فهذا هو الجديد هنا، ومن فطنة الواعظ العالم الحكيم اغتنام الموقف في الحث على القيم المبتغاة عند الولاة والخلفاء، والأمراء ومن في حكمهم بالنصح لهم فيما ينفعهم ويرتجيه العامة.

ثانيًا: لم تكن تلك المضامين على الرغم من مضمونها العقلي، ومحتواها الفكري، نصاً غليظ العبارة، أو أجوفَ حشي منطقاً وبراهين، مما يقوم به العقل ويقتضيه الموقف الأدبي، فالوعاظ كانوا من البلغاء، جرت مقولاتهم على ألسنتهم لينة، سهلة واضحة، ألغت العبارات والجمل تأليفاً بليغًا، تكاملت فيه الصورة الأدبية، واتخذ فيه المتكلم الجمال وحسن العبارة منطقاً وسبيلاً إلى الإقناع، ولم يخلُ كلامهم من النكت البلاغية، وجماليات التشكيل الفني في الأسلوب، فغدت تلك النصوص على وجازتها قطعاً من الأدب الرفيع، يحتاج إلى مزيد من التأمل والنقد والتحليل علَّ القارئ أن ينهل من معينه الثَّر، وأدبه الصافي، والرفيع بلاغة، والبديع حكمة و صورة وأسلوباً.

المبحث الثاني

جماليات الشكل

يحتل الشكل الفني للنثر الأدبي مساحةً كبيرةً لدى المبدعين؛ إذ يحرر المبدع والمتلقي من قوانين النظم المتمثلة في الوزن الشعري، والانطلاق نحو آفاق التحرر من أثير اللفظ والتركيب؛ فالنثر الأدبي يحمل في طياته حرية تعبيرية وتصويرية هائلة، ومع ذلك فهو حافل بالخيال والرمز والرؤى المحملة بدلالات اللفظ وعمق المعنى، وسنتناول في هذا المبحث: **دراسة الأدوات التي يتشكل بها النص ويكتسب بها عناصر الجمال، وهي:**

أولاً: الألفاظ:

تعد الألفاظ من أهم العناصر الفنية التي يعبر بها الأديب عن مشاعره، ويستعملها للبوح عما في نفسه من أتراح وأفراح، وكلما كانت واضحة سهلة ومعبرة كان تأثيرها على نفس المتلقي أعمق وأبلغ، فاختيار الألفاظ المناسبة يدل على حنكة وبراعة المبدع.

"فالكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ويدخل في ذلك أمور كثيرة يجب مراعاتها عند تحليل الألفاظ"(١).

وكان الشعراء في العصر الجاهلي يتخيرون ألفاظهم، ومن هؤلاء مدرسة زهير بن أبي سلمى المعروفة بعبيد الشعر، فقد كانوا يقفون أمام قصائدهم حولاً كاملاً لتنقيح ألفاظها وتهذيبها؛ حتى تخرج مستقيمة "ولذلك قال الحطيئة: "**خير**

(١) التحرير الأدبي، حسين علي محمد حسين (المتوفى ١٤٣١هـ) مكتبة العبيكان، ط: الخامسة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ٣٧٩.

الشعر الحولي المحكك". وقال الأصمعي: "**زهير بن أبي سلمى، والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر**"، وكذلك كل من جود في جميع شعره، ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة"(١).

ومن الملاحظ في عامة كلام الحكماء؛ أنه يميل إلى سهولة الألفاظ مع الدقة والإيحاء، وكذلك اهتمامهم بالألفاظ المشتقة والمضعفة؛ التي تزيد الكلام معنى "**وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى**"(٢).

ومن أبرز ما يلحظ في كلام الحكماء أنه يميل إلى السهولة والوضوح، والبعد عن الألفاظ الموغلة في الغرابة في كثير من الأحيان، وخير دليل على ذلك ما ورد في كتاب **العقد الفريد لابن عبد ربه** في مواعظ الحكماء.

على نحو ما جاء في كلام الحسن البصري (رحمه الله): من خاف الله أخاف الله منه كل شيء ومن خاف الناس أخافه الله من كل شيء"(٣).

فقد استعمل ألفاظاً سهلة قريبة المأخذ؛ لأن همه وصول المعنى واضحا لدى المتلقي، فلا مجال للغرابة والإغلاق، لذلك كرر لفظة (**خاف**) أكثر من

(١) البيان والتبيين: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ المتوفي: ٢٥٥هـ، دار مكتبة الهلال، بيروت عام النشر، ١٤٢٣هـ، ٢/ ١٠.

(٢) عبد الرازق بن حمودة القادوسي: أثر القراءات القرآنية في الصناعة المعجمية تاج العروس نموذجاً، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ الدكتور رجب عبد الجواد إبراهيم، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة حلوان، ١٤٣١هـ-٢٠١٠، ص١٦١.

(٣) العقد الفريد: ٣/٩٠.

أربع مرات في جملة واحدة، وقد اختار الألفاظ التي تناسب هذا المقام، وهذا هو المراد ببلاغة الكلام التي هي: "**مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته**"(١).

ويرى أبو هلال العسكري في كتابه ديوان المعاني: أن قيمة الألفاظ السهلة تكمن في وضوح الكلام، وتدل على حسن البديهة، وأورد قول الأعرابي حين سئل عن أبلغ الناس فأجاب: "**أبلغ الناس أسهلهم لفظاً، وأحسنهم بديهة، وهذا حسن جداً، لأن سهولة اللفظ وحسن البديهة يدلان على جودة القريحة والبلاغة الغريزية، ووعورة اللفظ تدل على تكلف وتعسف ولا شيء أذهب بماء الكلام وطلاوته ورونقه منهما، ولا يحسن معهما الكلام أصلاً وإن كان لطيف المعنى نبيل الصنعة**"(٢).

كما نجد السهولة والوضوح في كلام العتبي: "**اجتمعت العرب والعجم على أربع كلمات: قالوا: لا تحملن على قلبك ما لا يطيق ولا تعملن عملاً ليس لك فيه منفعة ولا تثق بالمرأة؛ لأنها مظنة الضعف ورقة المشاعر وعدم اغترار المرء بمال وإن كثر**"(٣).

فقد استعمل العتبي في كلامه الذي تكتنفه الحكمة المطلقة، فالناس كلهم اجتمعت على كلمات أربع، وهي: عدم حمل القلب ما لا يطيق، وألا يعمل

(١) محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق، ٧٣٩هـ: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق، محمد عبد المنعم خفاجي، دال الجيل، بيروت، الطبعة الثالثة، ٤١/١.

(٢) أبو هلال الحسن بين عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران العسكري (المتوفي نحو ٣٩٥هـ) ديوان المعاني، ، دار الجيل، بيروت، ٢/ ٨٧.

(٣) العقد الفريد: ٩٠/٣.

الإنسان عملاً لا يجد فيه منفعة، وعدم وضع الثقة في أي امرأة، وعدم اغتـــرار المرء بماله وإن كثر.

فألفاظه سهلة وقريبة المأخذ تصل إلى الجميع، وقد استعمل في ذلك أسلوب الإنشاء الطلبي النهي[١]، مع تأكيده بنون التوكيد الثقيلة.

وهذا أبو الدرداء يعظ أهل دمشق: "**ما لكم تبنون ما لا تسكنون، وتـــأملون ما لا تدركون، وتجمعون ما لا تأكلون، هذه عاد وثمود قـــد مـــلأوا مـــا بـــين بصري وعدن أموالاً وأولاداً، فمن يشتري مني ما تركوا بدرهمين**"[٢].

كلمات تميل إلى السهولة والوضوح فأبو الدرداء يتساءل متعجباً من يبنـــي بيتاً لا يسكنه، ويأمل ما لا يدركه، ويجمع ما لا يأكله، وجاء بالمسند إليه هنـــا؛ لزيادة الإيضاح والتقرير في كلامه [٣]، ويقرر باسم الإشارة عدم إفـــادة المـــال لأحد، وخير دليل على ذلك عاد وثمود اللذان ملآ ما بين بصرى فـــي الـــشام، وعدن في اليمن، أموالاً وأولاداً، ولكن لم ينفعهما ذلك، ثم يطرح سؤالاً "باســـم من" الذي يدل على التصور للماهية الحاصلة في الذهن[٤] والسؤال مـــؤداه هنـــا التحقير، فهل يوجد من يشتري مني ما ترك عاد وثمود بثمن رخيص، ألا وهـــو

---

(١) وله حرف واحد، وهو"لا"الجازمة في نحو قولك، لا تفعل وهو كالأمر فـــي اســـتعلاء، ينظر، الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني: ٨٨/٣.

(٢) العقد الفريد: ٩٢/٣.

(٣) ينظر، مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب المتوفي ٦٢٦هـــ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليـــه، نعـــيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـــ-١٩٨٧م، ١٧٧.

(٤) ينظر، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، أبو عبيد الله بـــن محمـــد بـــن عمـــران بن موسى المرزباني، المتوفي ٣٨٤هـــ، ص٦٩.

درهمان؟ وهو يريد بهذا السؤال الإنكاري أنهما ما تركا شيئاً بعدهما مما أفنيا فيه الأعمار.

فهذه الألفاظ كلها سهلة، وغزير ماؤها، ومبينة للأغراض التي في نفوس صاحبها ودالة على قرب المراد وأوضح في المطلوب، وتروى كتب الأدب ما جرى بين حسان بن ثابت والنابغة الذبياني في سوق عكاظ من انتقاده لبيتي حسان، الذي لم يوفق في اختيار الألفاظ المناسبة التي تفي بما أراد من معاني الكرم والمجد والشجاعة(١).

والميزة في كلام أكثر الحكماء أنه يميل إلى سهولة الألفاظ ووضوحها في معظمه؛ رغم أنه يوجد منهم من يذهب إلى الخشونة والوعورة، وسأورد بعض أمثلة من كلامهم في المبحث القادم.

غرابة الألفاظ:

لفظة غرب من الكلمات المشتركة التي تدل على معاني كثيرة منها: البعد، والغموض، والخفاء، والجمع غرباء وهي غريبة جمع غرائب(٢).

ومن فصاحة المفرد أن يخلص من الغرابة، وهي الوحشية التي لا يظهر معناها إلا بالبحث والتنقيب في معاجم اللغة العربية المبسوطة(٣).

---

(١) ينظر، يحيي بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلوي الطالبي الملقب بالمؤيد بالله، المتوفي ٧٤٥هـ، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ٣/ ١٥٨.

(٢) ينظر، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، الناشر، دار الدعوة، ٢/ ٦٤٧.

(٣) ينظر، الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني: ٢٣/١.

ويذكر الدكتور: محمد أبو موسى، في كتابه خصائص التراكيب أن: الذوق العربي لا يقبل التغريب في الكلمات بل يمجه "والذوق العربي لا يحب الغرابة في الكلمات، ويكره التباصر بالغريب والتشادق به، ويجعلونه دليل قساوة الطبع، وتشيع في كلامهم هذه المعاني كما في قولهم: الاستعانة بالغريب عجز، والتشادق في غير أهل البادية نقص، وقولهم البليغ من يجتني من الألفاظ نوارها"(١).

ومن الكلمات الغريبة ما جاء في أثناء كلام على بن طالب (ﷺ) وهو يعظ ولده محمد بن الحنفية "**أن تفقه في الدين، وعود نفسك الصبر على المكروه، وكل نفسك في أمورك كلها إلى الله (ﷻ)، فإنك تكلها إلى كهف حريز، ومانع عزيز، وأخلص المسألة لربك، فإن بيده العطاء والحرمان وأكثر الاستخارة له، واعلم أن من كان مطيته الليل والنهار فإنه يسار به؛ وإن كان لا يسير، فإن الله تعالى قد أبى إلا خراب الدنيا وعمارة الآخرة، فإن قدرت أن تزهد فيها زهدك كله فافعل ذلك، وإن كنت قابل نصيحتي إياك فاعلم علماً يقيناً أنك لن تبلغ أملك، ولا تعدو أجلك، فإنك في سبيل من كان قبلك، فأكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقتك إلى الرغائب، فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً، وإياك أن توجف بك مطايا الطمع وتقول: متى ما أخرت نزعت، فإن هذا أهلك من هلك قبلك، وأمسك عليك لسانك، فإن تلافيك ما فرط من صمتك، أيسر عليك إدراك ما فات من منطقك، واحفظ ما في الوعاء بشد الوكاء، فحسن التدبير مع الاقتصاد أبقى لك من الكثير من الفساد، والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور، والمرء أحفظ لسره، ولربما سعى فيما يضره، وإياك**

(١) ينظر، محمد محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، الطبعة السابعة، ٦٥.

والاتكال على الأماني، فإنها بضائع النوكي، وتثبط عن الآخرة والأولى، ومن خير حظ الدنيا القرين الصالح، فقارن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر تبن عنهم، ولا يغلبن عليك سوء الظن، فإنه لن يدع بينك وبين خليل صلحا، أذك قلبك بالأدب كما تذكي النار بالحطب، واعلم أن كفر النعمة لؤم، وصحبة الأحمق شؤم ومن الكرم منع الحرم، ومن حلم ساد، ومن تفهم ازداد، امحض أخاك النصيحة، حسنة كانت أو قبيحة، لا تصرم أخاك على ارتياب، ولا تقطعه دون استعتاب"(١).

ونجد النص مفعماً بالبيان، والجمال، فهو من السهل الممتنع، وإن بدت فيه بعض الكلمات غريبة، مثل: "**تعتاض، توجعت، النوكي، محض**"؛ فذلك لبعد الزمن بها عن الاستعمال، وإذا روجعت وجدت لها من الأثر في النفس ما لا يقع لغيرها، وعلة ذلك راجعة إلى قيمتها الإيقاعية، فالمفردة من الألفاظ تحسن في النفس رغم غرابتها أو عدم ألفتها؛ فإذا كانت فصيحة مؤلفة تأليفاً حسناً، وجاءت في سياق ملائم لها، متوائمة مع عناصره، في ملاءمة معناها لمعنى جاراتها بحيث يتحقق بين الكلمات جميعا عنصر المؤانسة(٢).

وهذا ما يقصد به النقاد تآخي الكلمات في النص، فقد تأتي الألفاظ مختلفة متباينة في مستواها الصوتي، ودلالاتها المعنوية، وقد يحكم عليها بأنها متنافرة مستكرهة، تشق على اللسان وتكده، خلاف الألفاظ اللينة السهلة، المواتية التي

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، الناشر، دار الدعوة، ٨٥٦/٢.

(٢) ينظر، صابر عبد الدايم، آفاق النص الشعري، دار الكتاب الحديث، ط١، القاهرة، ١٤٣٣هـ. ص٧٥.

تقع خفيفة على اللسان فتجري عليه في نظام سهل كأن الكلمة حرف، والكلمات كلمة واحدة.

ولكن الاعتبار في البيان نظم الكلام، وحسن بنائه، فقد ترد الكلمة الواحدة أو جملة الكلمات غريبة نابية في السمع أو غريبة في موقعها، لكن مكانها متوافق مع النظم، "**وملائمة في معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها** (١).

وذلك هو حسن الاتفاق بين هذه وتلك، من جهة معناها، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلتق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها (٢).

ونجد هذا التأليف للعبارة جلياً في كلام الحكماء، فقد تتجاور الجمل، ويتألف الكلام من مقاطع صوتية، وترد العبارات بألفاظ متباينة في المستوى الصوتي، والدلالة، ولكنها تبقى متألقة متجانسة وإن استنكره البعض منها، وهو ليس قسراً للألفاظ على حمل المعاني، وإنما ألفاظ خشنة جاءت في السياق تحمل معنى إيحائياً خاصاً، ولا يملك المتكلم غيرها في حسن أدائها، وجمال موقعها لما تحمله في ثناياها من إشعاعات تعبيرية، ترتقي بالمعنى وتكسبه جلالاً وقوة، فحين استخدم على بن أبي طالب (ﷺ) "**حريز، وتوجف، امحض...**" أراد بهذه الألفاظ التعبير عما قام في نفسه، ولا يصوره إلا هذه الأوعية من الكلمات، وربما وردت على لسانه عفواً لما يملكه من معجم اللغة الفصيح، فهو يتكلم بها لا تفاصحاً وتشدقاً وإنما تجري على لسانه لينة بليغة، تبلغ المعنى، ويفهمها سامعوه ويتذوقون معه جمال وقعها في السمع، وجلاء معانيها.

---

(١) دلائل الإعجاز، الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، ط الخانجي، ط١، ص ٣٢.

(٢) السابق، ص ٣٢.

ومن يتأمل كلام على (ﷺ) يلحظ جانباً آخر في حكمه الوعظية البليغة، وهو تفرده في استخدام الجمل القصيرة، وما تتسم به من التقسيم والمزاوجة متشحة بالإيقاع الصوتي والجرس المؤثر؛ فيأتي طرفاً من كلامه موقعاً مسجوعاً نحو قوله: "**وأمسك عليك لسانك، فإن تلافيك ما فرط من صحتك، أيسر عليك إدراك ما فات من منطقك**"؛ فقد جعل فاصلة الكلام منتهية بحرف الكاف في "**لسانك، صمتك، منطقك، صحتك، منطقك**"، ثم يعقب هذا الالتزام الإيقاعي، بتحرير الكلام من هذا الضبط الصوتي لتأتي عباراته منسابة غير قلقة، يترسل فيها بسلاسة في التعبير، وكأنه أراد تنويع أسلوبه قصداً، وقد جاء على لسانه عفواً.

وتلك سمة بلاغية بلغت حداً رفيعاً وشأواً بعيداً في فن القول وجماليات التعبير في النص النثري، وهي سمة عامة في نثر الحكماء لما قدمنا من أن الغاية الحاكمة لأقوالهم هي الفهم والتأثير واستمالة القلوب، فهم يتكلمون عفواً فلا يقسرون العبارات، ولا يقتسرون الجمل، ولايتعسفون في تأليفها، وكأن عبد القاهر الجرجاني في حديثه عن النظم وجمال التركيب لم يرد مثالاً يحتذى إلا قولهم وتأليفهم الكلام في مواعظهم.

وليس هذا إفراطًا في الثناء على عبارات الوعاظ والحكماء فيما أثر عنهم، وتجلة لهم، وإيثاراً لقولهم على سائر البيان العربي، فكل جنس من البلغاء لهم حقهم من الاعتراف بفضلهم والإقرار بتقدمهم في فنهم، ولكنه أمر ناتج عن الاستقراء والتأمل، فكما تقدم في كلام على (ﷺ)، نجد أشباهاً ونظائر له في كلامهم، فمما رواه ابن عبد ربه عن بعضهم يعظ قوماً **استبدلوا العواري بالهبات تحمدوا العقبى، واستقبلوا المصائب بالصبر تستحقوا النعمى**؛ فجاء كلامه موقعاً، ذا فواصل متجانسة، تزف المعاني إلى القلوب، ثم ما يلبث أن

يترك هذا السجع إلى الترسل المتحرر من الالتزام بالسجع، ليأتي كلامه بديعاً لا يقل تأثيرا عن وقع الجرس في العبارات الأولى فيقول: "**واستديموا الكرامة بالشكر تستوجبوا الزيادة، واعرفوا فضل البقاء في النعمة والغنى في السلامة قبل الفتنة الفاحشة**"(١).

وهذا التنوع في الإيقاع أكسب الكلام جمالاً، وتأثيرا كما منحه أداءً دقيقاً للمعنى لوفائه بالمقصود، مع تآلف الكلمات وتجاورها في الجملة الواحدة، وتلاؤم الجمل في تصويرها للمعاني.

ثانياً: الأسلوب:

الصورة اللفظية التي يعبر بها عن المعاني أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال، أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني(٢).

ويحسن في أسلوب المتكلم الخطيب أو الواعظ، أو المنافر لغيره في جدل قولي أن يتسم بالوعي والفهم فهماً دقيقاً جلياً، ثم يحرص على أدائه بأسلوب يصوره تصويراً بالغ الدقة جلياً واضحاً؛ لأنه محكوم له بجلاء المراد لا بجلال الكلام؛ لذلك كان الوضوح صفة مقدمة عند النقاد، وشرطاً لبلاغة النص، وبعد ذلك يأتي التعبير اللغوي الذي يتطلب من المنشئ ثروة لغوية وقدرة على التصرف في التراكيب والعبارات، لتلائم أفكاره وطريقه تفكيره، فلا يرضى عن كلمة أو جملة تبعث الإبهام أو الاشتراك، فيشعر المتلقون بأن عباراته في حاجة إلى أن تفهم(٣).

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ١٤٩.

(٢) ينظر، الأسلوب، أحمد الشايب الناشر، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية عشر، ٢٠٠٣، ٤٦.

(٣) ينظر، المصدر السابق: ١٨٦.

وتركز الدراسة الأسلوبية على دراسة الألفاظ المستعملة في النص، وصياغتها وبنائها، وقد تعددت حسب غايات المتكلم.

واتسم الأسلوب في كلام الحكماء بظواهر أسلوبية بارزة كالتكرار، وأسلوب الحوار، وضرب الأمثال وكلها تنضوي تحت الأسلوب الخطابي.

التكرار:

التكرار ظاهرة أسلوبية شائعة في النص الأدبي شعره ونثره "**لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعاطفة الجياشة والإيقاع المتوازن، وهما من أخص خصائصه**"(١)، وله قيمته البلاغية، وخير دليل على ذلك أن القرآن الكريم عمد في كثير من المواطن إلى هذا الأسلوب؛ ليوثق المعاني في النفوس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾ (٢)، فقد كرر هنا الوعيد لتأكيد الخوف في النفس وإنذارها.

وقوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝٩٧ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٩٨ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩٩ ﴾(٣)، ولهذا التكرار وقع شديد في النفس، تنفطر منه القلوب، وتقشعر منه الجلود، وهو في غاية الحسن.

---

(١) دراسات أسلوبية، وبلاغية، د. نجوى صابر، ط١، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٨، ص ٥.

(٢) سورة التكاثر: آية ٤.

(٣) سورة الأعراف: الآيات ٩٧-٩٩.

وللتكرار أغراض كثيرة عند البلاغيين، منها التقرير، والتوبيخ، والتشويق، والتعظيم، والوعيد... وغيرها من النكت البلاغية[١]، ولما بينه وبين التوكيد النحوي المنوط بأصل التركيب من صورة التكرار، وقد لوحظ أسلوب التكرار في كثير من كلام الحكماء ؛ فالمقصود من التكرار الأسلوبي: "أن يأتي في الكلام تأكيداً له، وتشييداً من أمره، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي قررت فيه كلامك، إما مبالغة في مدحه أو ذمه... أو غير ذلك"[٢].

ومن ذلك ما ورد عند على بن طالب (ﷺ): لا يرجونَّ أحدكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، وكرر على (ﷺ) في وعظه "واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس ذهب الجسد"[٣]؛ فأفاد هذا التكرار التأكيد والتقرير، فقد كرر لفظة **(علم)** في قوله: "**إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم وإذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه واعلموا...** ومن التكرار تقرير المعنى بتأكيد أهمية العلم والصبر والإيمان، فهو بمنزله الرأس من الجسد.

ومما يزيد الكلام تقريراً وتأكيداً بتكراره؛ وصية أبي بكر الصديق (ﷺ) لعمر حين استخلفه عند موته، "**أوصيك بتقوى الله، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفرائض، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً، وإنما خفت**

(١) ينظر، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ص

(٢) المثل السائر، تحقيق بدوي طبانة، ط، دار الرفاعي، الرياض، ٣/ ١٤٦.

(٣) العقد الفريد: ٣/ ١٤٨.

موازين من خفت موازينهم يوم القيامة، باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً..."[1].

فالصحابي الجليل أبو بكر الصديق وهو في موته يوصي عمر ويرسم له طريقاً يسير عليه بعد موته، فاستخدم أسلوب التكرار لتقرير كلامه وتأكيده عليه سامعه، فكرر كلمات مهمة "**يقبله والموازين والجنة والنار وثقلت**" فقد تركت هذه الكلمات في نفس عمر بن الخطاب أثراً عميقاً لا ينساه، ولو أنه لم يكررها لم تترك ذلك الأثر من وصية أبي بكر رضي الله عنهما .

ومن أسلوب التكرار ما ورد عند لقمان وهو يعظ ابنه حيث كرر لفظة " يا بني" للتشويق والرأفة والتلذذ بذكر اسمه "**يا بني لا تضحك من غير عجب، ولا تمش في غير أرب، ولا تسأل عما لا يعنيك، يا بني لا تضع مالك وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدمت، ومال غيرك ما تركت، يا بني إنه من يرَحم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الباطل يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم. يا بني زاحم العلماء بركبتيك وأنصت إليهم بأذنيك، فإن القلب يحيا بنور العلماء، كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء**"[2].

ويلحظ استخدامهم هذا الأسلوب لتقرير وتأكيد كلامهم وترسيخه في نفوس المتلقين، وكما أشرت في السابق أن القرآن الكريم استعمل أسلوب التكرار في أكثر من آية، وذلك لبلاغته وعظم أثره في النفس.

ويتنوع التكرار في المواعظ، فيأتي تكراراً لفظياً بتكرار الألفاظ كما تقدم، وتكرار المعاني في التكرار الصوتي في بعض جمله.

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ٩١.

(٢) المصدر السابق.

ومن التكرار المعنوي قول: المبارك "**لن تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تكره**"؛ فالجملة الثانية تحوي معنى الأولى، فنيل الأمل مع الصبر على الكراهة هي النيل مع ترك الشهوات، فكرر المعنى توكيداً وتقريراً لمضمون الجملة... ومثله قوله الحكيم: "**فإنما تحفظ النفوس على قدر الخوف، وتطلب على قدر الطمع، وتطمع على قدر السبب**"؛ فكرر المعنى في جملتين اختلفتا في التركيب، واتفقتا في المعنى، وذلك دال على سعة معجم المفردات لدى المتكلم، والقدرة على حبك العبارة، وتنويع الصياغة، وهي مهارة لغوية لا يحذقها إلا المبدعون من البلغاء، وهو من جانب آخر تكرار فيه تطابق يجعل المتلقي "يشعر أنه ليس هناك اختلاف بينهما لاستعمال بعض الأساليب التي تتكرر فيها الأشكال مع اختلاف في المحتوى، وتلك تسمى (التوازي) بتكرار المحتوى مع اختلاف الأشكال، وهو نوع من الترادف الذي يهدف إلى تأكيد المعنى وتقويته[1].

أما التكرار الصوتي فيظهر في خطاب أحد الحكماء يعظ ابنه: "**يا بني لا تضحك من غير عجب، ولا تمش في غير أرب... يا بني زاحم العلماء بركبتيك...وأنصت إليهم بأذنيك**".

فجاءت الكلمات في نغم صوتي متحد، (عجب، وأرب)، و"**ركبتيك وأذنيك**" وهذا التكرار الصوتي بقصد توكيد المعنى ويضفي على الكلام إيقاعاً حسناً مشوقًا، وهو من محاسن الأسلوب النثري، حيث يمكن المتكلم من الوعي بما يمنح المتلقي الإثارة والاستمالة له، ويمنح المتلقي لذة في تلقيه النص موقعاً توقيعاً حسناً، يعينه على الفهم، ويشوقه للاستماع والمتابعة.

---

(١) ينظر، عزة شبل محمد، علم لغة النص، النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، ط١ القاهرة، ١٤٢٨هـ، ص ١٠٥-١٠٦.

وقد يتخذ الحوار قالباً علمياً، يتولد محتواه من نصوص شرعية مثل ما جرى بين محمد بن واسع، ومالك بن دينار في مجلس بالبصرة حيث قال: "**مالك بن دينار ما هو إلا طاعة الله أو النار، فقال محمد بن واسع ما هو كما تقول ليس إلا عفو الله أو النار، قال مالك: صدقت، ثم قال مالك: إنه يعجبني أن يكون للرجل معيشة على قدر ما يقوته، قال محمد بن واسع ولا هو كما تقول: ولا يعجبني أن يصبح الرجل وليس له غداء، ويمسي وليس له عشاء، وهو مع ذلك راض عن الله، قال مالك: ما أحوجني إلى أن يعلمني مثلك**"[1].

فهذا الحوار الذي جرى بين الحكيمين الزاهدين استقى مضمونه من الحديث **النبوي** "**إلا أن يتغمدني الله برحمته**"[2] حيث إن محمد بن واسع لم يقبل ما يراه مالك بن دينار في أمور تتعلق بالدين ولكن على أساس علمي صحيح.

وهكذا الحوار الذي جرى بين الرشيد وعابد حين حج هارون الرشيد، فبلغته أخبار عن عابد بمكة مجاب الدعوة معتزل في جبال تهامة، فأتاه هارون الرشيد فسأله عن حاله، ثم قال له أوصني: "**ومرني بما شئت فو الله لا عصيتك، فسكت عنه ولم يرد عليه جواباً، فخرج عنه هارون فقال له أصحابه: ما منعك إذ سألك أن تأمره بتقوى الله والإحسان إلى رعيته؟ فخط لهم في الرمل: إني أعظمت الله أن يكون يأمره فيعصيه، وآمره أنا فيطيعني**"[3].

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ١١٦.

(٢) صحيح البخاري: باب القصد والمداومة على العمل، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار النجاة، ١٤٢٢هـ، حديث رقم ٦٤٦٧.

(٣) العقد الفريد: ٣/ ١١٦.

فالحوار الذي جرى بين العابد وأتباعه بعد أن طلب هارون الرشيد أن يوصيه بما يراه يدل على قوة حجته؛ حيث استعمل أسلوب الحوار المدعم بالبراهين الدامغة، ولم يترك هناك مجالاً للشك والريبة لأتباعه ومريديه.

ويتسم الحوار في الموعظة بالمباشرة، والبعد عن التحليل الشعري، فلا صور ولا مجازات، وإنما جمل وعظية قوية تصف المراد، وتحدده في صبغة علمية مقرونة بالحجج والبراهين العقلية، فهي ذات مضامين فكرية من جهة، ومن جهة أخرى ذات ألفاظ وجمل حبكت بعناية فائقة وسردت في أسلوب خاص، لا تبلغ درجة الرواية المتصلة والخبر المروي ولا تهبط إلى مستوى المرويات القولية العامة؛ فليست خطاباً موجهاً اعتنى به قائلة تحبيراً وصناعة؛ وإنما تحكي أجوبة مستقاة من المنطق والفهم الدقيق المبني على المستوى الفكري للمتكلم.

وجاءت الحوارات في لغة سهلة اختارها المتكلم من مخزونه المعجمي؛ ليعبر بها حسب ما يتطلبه الموقف، كما شهدنا في قول محمد بن واسع وابن دينار: "**ما هو كما تقول: ليس إلا عفو الله أو النار**" وقال في الأخرى،" **ولا يعجبني أن يصبح الرجل وليس له غداء، ويمسي وليس له عشاء، ومع ذلك راضٍ عن الله**"؛ فالجمل جاءت عفوية قريبة، ومباشرة، لم يتكلفها المتكلم، ولم يبالغ في انتقائها وإلباسها ثوب الصياغة والصناعة اللفظية، فالموقف لا يحتمل هذا النوع من التأليف والنظم.

كما جاء السرد في الحوار مجتزءاً لا نجد فيه سردًا للرواه ولا وصفاً للموقف والمشهد، ولم تغب فيه شخصيات الرواة، وجمل الحوارات قد حدد قائلوها شخصياتها، وابتدأت بالوصف المباشر نحو: "**حج هارون الرشيد فبلغه عن عابد بمكة مجاب الدعوة معتزل في نهاية**" هكذا بدأت الرواية، ومن بعد

يجعل الراوي الحوار مادة للمشهد دون وصف للزمان والمكان والشخصية الراوي والمروي عنه ما عدا كونه زاهداً يتعبد، وهذا يدل على أن الحوار لم يكن مقصوداً لذاته.

ثالثاً: الصورة:

للصورة مكانتها في النص الأدبي، فهي التي تمنحه القدرة على الإيحاء والتأثير، وعلى دارس النص الأدبي شعرًا أو نثرًا أن يتوجه إلى دراسة الصورة الفنية في النص، فيتناول ألفاظها المكونة لها، والبيئة التي استمدت منها، وأنماطها المعبر عنها من تشبيه، ومجاز مرسل، واستعارة، وكناية، كما يتناول قيمها الفنية في كل نمط منها، وإيثار الأديب لنمط منها دون آخر [١].

وقد بدت الصورة الفنية خصبة في كلام الحكماء، حيث حوت صوراً فنية بديعة، تبرز فيها بلاغتهم، ويظهر فيها ما يمتلكون من أدب أعانهم على تصوير معانيهم، وصناعة فنهم، وفي كلامهم تنوع مقصود لذاته، والغاية منه هو ما حوته الصورة من موعظة أفادها السامع منها في مثل هذا الموقف.

التشبيه:

التشبيه أداة الفن، والمعين للمبدع على إيضاح المراد، وبيان الصورة الذهنية للفكرة لديه، ويعرف ابن رشيق القيرواني التشبيه بأنه: صفة الشيء بما قاربه وشاكله، ومن جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه[٢].

وهو " كثير في كلام العرب، حتى لو قال قائل إنه أكثر كلامهم لم يبعد"[٣].

---

(١) العقد الفريد: ٣/ ١١٧

(٢) ينظر، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ص

(٣) الكامل للمبرد: ١/ ٦٩.

وكان المعيار الأول للمفاضلة بين الشعراء حتى قال القاضي الجرجاني: "وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحسن، وتسلم السبق لمن وصف فأجاد، وشبه فقارب..[١]، وهذا وإن كان خاصاً بفن الشعر ونقده، ولكنه معيار عام عند نقاد الكلام، حتى جعله قدامه بن جعفر"من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم"[٢]، وجعل استعماله في الحكمة عند الحكماء والأدباء مسلكاً للبيان"فلا يزالون يضربون الأمثال، ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشباه والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلباً، وأقرب مذهباً، وإنما فعلت العلماء ذلك، لأن الخير في نفسه إذا كان ممكناً فهو يحتاج إلى ما يدل عليه وعلي صحته، والمثل مقرون بالحجة[٣].

ومن بليغ التشبيه قول الحسن البصري: "إنما الدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط، ونحن في أضغاث أحلام[٤].

فقد شبه (ﷺ) الدنيا- بعد أن قصره بإنما- بالحِلم – بالكسر – تشبيهاً بليغاً، حيث حذف فيه الأداة ووجه الشبه، وجعل الدنيا حلماً وشبه الآخرة باليقظة والموت بالمتوسط بين الحلم واليقظة.

ومن التشبيه ما جرى في كلام بين سليمان بن عبد الملك والأعرابي حين دخل عليه وأطلق لسانه بما يكره من الموعظة فأجابه بقوله: "**أما أنت يا أعرابي**

(١) الوساطة للقاضي الجرجاني، ص ٣٢، تحقيق البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.
(٢) نقد النثر قدامة بن جعفر: ٥٨
(٣) السابق، ص ٦٦.
(٤) العقد الفريد: ٣/ ١٥٣.

فقد سللت لسانك وهو أحد سيفيك"[1].

حيث شبه تشبيهاً ضمنياً لسانه بالسيف الذي يقطع كل شيء، فهي استعارة تصريحية ورشحها بسللت، وسيفيك، وهو من وجه آخر استعارة، وقد أبان عن مراده بهذا التشبيه الضمني والاستعارة المرشحة بما يلائمها من الألفاظ، وهكذا التشبيه المرسل الذي ذكر فيه أداة التشبيه "**كأن عينيه مزادتان**"[2]؛ حيث شبه الراهب بالدلو الكبير والجامع بينهما الغور والوسع.

ونحوه ما جاء في قول بعض **الحكماء** "**فما أردت الانصراف بلغني أنه ثقيل، فدخلت عليه، فإذا هو كالخفاش لم يبق منه إلا رأسه**".

حيث شبه موسى الأسواري آزادمرد بالخفاش والجامع الخوف والحيرة، وذلك في قوله: "**كيف حال من يريد سفراً بعيداً بغير زاد ويدخل قبراً موحشاً بلا مؤنس**".

ومنه قول أهل مكة لما سئلوا عن عطاء بن أبي رباح قالوا: "**كان مثل العافية التي لا تعرف فضلها حتى تفقدها**"[1].

حيث شبهوا عطاء بن أبي رباح بالعافية، والجامع بينهما كونهما ضروريين حيث لا يستطيع أحد فقدهما.

وهذه التشبيهات من بديع البيان، إذا استخدمها البلغاء في مقامها المناسب، وجاء بها؛ لتأكيد المعاني، وتقريرها، وزادت المضامين جلاء وجمالا، وهذا من أغراض التشبيه الجمالية؛ فيحسن التشبيه، إذ كان المراد به متحققاً في العبارة، كأن يكون للتحسين أو التقبيح أو التأكيد والتقرير.

---

(١) العقد الفريد: ٣/١١١.

(٢) المصدر السابق: ٣/١١٢.

وعناية الحكماء بالتشبيه لما وجدوه في هذا الفن من القدرة على إيصال المراد دون عناء، حيث يندفع الوهم والاشتراك، وتنتفي الشبهة والخفاء.

أما عنايتهم بالاستعارة فنحو عنايتهم من أصلها المقرونة في التشبيه، حيث جاءت الاستعارة مجتمعة مع التشبيه في جملة واحدة، كما في قول سليمان بن عبد الملك "**سللت لسانك**"؛ فالاستعارة تبعية في سللت، وتصريحية في "**لسانك**" وكل منهما مرشح لأحدهما.

الكناية: لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ(١)، وهي أبلغ من التصريح كما هو معروف عند البلاغيين، وكثر استخدامها عند الحكماء في مواعظهم، كقول على بن أبي طالب (ﷺ) "(أوصيكم بخمس لو ضربتم عليها آباط الإبل لكان قليلاً"(٢).

فضرب آباط الإبل كناية عن طول السفر، وضَرَبَ آباط الإبل"أجهدها في السير، وضَرَب – آباط الأمور: عرف بواطنها(٣).

ومن الكناية ما قاله الحسن البصري عندما عاد عبد الله بن الأهتم وهو في مرضه، حيث قال له عبد الله بن الأهتم: "**أبا سعيد ما تقول في مائة ألف في هذا الصندوق، ولم أؤد منها زكاة، ولم أصل منها رحماً؟ قال: ثكلتك أمك**"(٤)؛ فلفظة (**ثكلتك أمك**) كناية عن الهلاك.

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، المؤلف: عبد المتعال الصعيدي (المتوفي ١٣٩١هـ)، الناشر: مكتبة الآداب الطبعة السابعة عشر، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، ٥٣٨/٣.

(٢) العقد الفريد: ٩٠/٣

(٣) أحمد مختار عبد الحميد عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ –٢٠٠٨م، ٥٤/١.

(٤) العقد الفريد: ٩١/٣.

ومن الكناية ما كتبه حكيم إلى حكيم آخر: "**اعلم حفظك الله أن النفوس جبلت على أخذ ما أعطيت، ومنع ما سئلت، فأحملها على مطية لا تبطئ إذا ركبت ولا تسبق إذا قدمت**"(١).

ومنها ما وعظ لقمان به ابنه: "**يا بني زاحم العلماء بركبتيك، وأنصت أليهم بأذنيك**" (٢)؛ فمزاحمة العلماء بالركبتين كناية عن التواضع، وكذلك الحب والاحترام لهم.

ويلحظ كيف جاءت الكناية لإبراز المعاني في حلية لفظية، تدعو إلى التبصر بها، وهي من وسائل إخفاء المعاني المباشرة، والتحرز من ذكر ما يسوء، ومقام الوعظ يتطلب هذا النوع من الخطاب الموشح بالرمز إلى المعاني، إجلالاً لها، أو المقام الواردة فيه، أو تحسيناً للعبارة، وكل ما مرّ آنفاً من صورة الكناية يندرج في هذا الباب، ونحو ما ورد في كلام سفيان الثوري مع أبي جعفر حين قال: "**ألقينا الحب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فراراً**"(٣).

فقوله: "**ألقينا الحب إلى العلماء فلقطواً، كناية عن ذل بعض العلماء وانحطاط مكانتهم لدى الوجهاء**".

وهذه من الكنايات في المقام الذي يأنف المتكلم من التصريح بمراده، فيكني بعبارة لطيفة، ترمز إليه ولا تخدش سمع المتلقي بما يؤذيه.

---

(١) العقد الفريد : ٩٥/٣

(٢) المصدر السابق: ٩٧/٣

(٣) نفسه: ١٠٩/٣

وهذا في قول أبي عمر بن عتبه لابنه كنايةعن بلوغه حد وجوب الحـــذر، والالتزام والاستقامة: "**تقطعت عنك شرائع الصبا، فالزم الحياء تكن من أهلـــه، ولا تزايله فتبين منه**"(١)، فتقطع شرائع الصبا كناية عن ذهابه إلى غير رجعة.

رابعاً: الإيقاع:

يطلق الإيقاع في النثر ويراد به جرس الكلمات، ووقعها المؤثر في البيان، وحسن التأثير في المتلقي.

والأصل في الإيقاع أن يكون في الشعر إلا أنه وجد في النثر في كثير من الأحيان، ولا سيما في مقولات الحكماء والوعاظ، وقد شاع التأليف فيهـــا النثـــر في القرن الرابع الهجري، فإن النغمة الموسيقية فيه ارتفعت حتى قاربت نغمـــة الشعر، وغلبت قوة المحاكاة للخطابة واختلط الفنان، كما قال الفارابي، ولكـــنَّ أبا حيان لم يكن يعني الاقتراب بينهما في التصوير، غير أنه وجد فـــي القـــرن الرابع(٢).

ومن الممكن القول: إن الإيقاع يكون ظاهراً في النثر كما هو في الـــشعر، لاسيما في الكلمات ذات الدلالة الموسيقية والمتجانسة كالجناس والسجع والطباق والمقابلة والموازنة... وغيرها.

---

(١) العقد الفريد: ٩٩/٣.

(٢) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دكتور إحسان عباس (المتـــوفي ١٤٢٤هـــ)، الطبعـــة الرابعة، ١٩٨٣، الناشر دار الثقافة،بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـــ -١٩٧١م (٢٤١/١)

الجناس:

للجناس أنواع مختلفة لا نريد أن نتطرق في تفاصيلها، وهو في اصطلاح البلاغيين: أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى[١].

ومنه "**وأكرم الذين بهم تصول وإذا تطاولت بهم تطول**"[٢]، ومن الجناس غير التام قول بعض الحكماء: "**ومن الكرم منع الحرم**"[٣]، ومنه:"**وخير المقال ما صدقه الفعال**"[٤]، "**سل عن الرفيق قبل الطريق**"[٥]. "**وعن الجار قبل الدار**"[٦].

فالجناس حاصل بين "**الكرم والحرم**" و"**المقال والفعال**" و"**الرفيق والطريق**" حيث تشابهت في أكثر الألفاظ، واختلفت في المعاني، وتماثل هذه الألفاظ من حيث الشكل واللون أعطى الإيقاع الخارجي وقعاً جميلا في النفس والأذن،ولهذا مال كثير من الحكماء والوعاظ بهذا اللون البديعي الجميل، وجاء على ألسنتهم مطبوعا غير متكلف، فزاد كلامهم حسنا في الإيقاع، وجمالاً في العبارة، وإيضاحاً للمعاني.

---

(١) البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني الدمشقي، المتوفي ١٤٢٥هـ، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م ٤٨٥/٢.

(٢) العقد الفريد: ١٠٢/٣

(٣) السابق: ١٠٢/٣

(٤) نفسه: ١٠٢/٣

(٥) نفسه: ١٠٢/٣

(٦) نفسه: ١٠٢/٣

السجع:

أما السجع وهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد[١]، فقد عني به الحكماء في مواعظهم، ومنها ما جاء في كلام على بن أبي طالب إلى ولده الحسن (عليهما السلام): "**من علي أمير المؤمنين الوالد الفاني المقر للزمان المستسلم للحدثان**"[٢].

ومنه أيضاً لولده محمد بن الحنفية "**ربما أخطأ البصير قصده،وأبصر الأعمى رشده، ولم يهلك امرؤ اقتصد ولم يفتقر من زهد، ومن ائتمن خانه ومن تعظم عليه أهانه**"[٣].

ومن المطرف أيضاً قوله: "**يا بني إنه من يرحم يُـرْحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الباطل يأثم**"[٤]، ومنه أيضاً ما جرى بين الحسن البصري وابن الأهتم وقد دخل عليه الحسن يعوده" **قطع فيه لجج البحار ومفاوز القفار،لم تكدح فيه بيمين، ولم يعرق لك فيه جبين**[٥].

وقد جرى السجع طبعياً غير متكلف، فزان حديثهم، وحسن صورهم، وأوقع العبارات بجرسها الآخاذ في آذان المتلقين خير موقع، ووضح الجمل بوشاح بديع من الجرس اللفظي والصوتي المؤثر، وليس العناية بالإيقاع، ورعايته في كلام البلغاء مستغرباً، فهذا باب من الفصاحة، وهم أرباب البيان وجمال القول البليغ.

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: ٦٥٣/٤

(٢) العقد الفريد: ص

(٣) السابق: ١٥٨/٣

(٤) نفسه: ١٥٨/٣

(٥) نفسه: ١٥٢/٣

(٣) نفسه: ١٤٩/٣

الخلاصـــــة

حاولت في هذا البحث دراسة مواعظ الحكماء في خطابها الأدبي، وجعلت الدراسة في مبحثين:

تناولت في **المبحث الأول: جماليات المضمون**، وتبين من خلال قراءة النصوص ودراستها أن المواعظ لدى الحكماء جرت في ثلاثة محاور رئيسة، هي: الوعظ، والتذكير بالآخرة، ومحور ثان هو التربية الروحية وغرس القيم التربوية لدى جماهير المتلقين، والمحور الثالث كان في الوعظ السياسي حينما يريد الحكماء تذكير الساسة والخلفاء والولاة والأمراء بما يجب عليهم، أو ما لرعيتهم من الحقوق، وتقديم العمل للآخرة على زخرف الحياة الدنيا.

ويتخلل حديثهم في المحاور الثلاثة ما يرد على ألسنتهم من طرائف القول، وجمال المعاني، وجليل المضامين.

أما **المبحث الثاني: جماليات الشكل**، وهو الصورة الأسلوبية التي أديت بها المعاني، وحاولت الوقوف عند أدوات البلغاء من الحكماء في تصوير معانيهم وما ألبسوها من جميل الألفاظ، ومحكم العبارات، وما اختاروا من بديع الصور البلاغية لبيان مرادهم، وتحسين أقوالهم.

وخلاصة القول أن: النص الأدبي في مواعظ الحكماء يتسم بالبلاغة، وشعرية الكلمة، ولم تمنعه عقلانية الفكرة التي يعالجها، والمنطق الفكري الذي يتخذه وسيلة إلى الإقناع من أن يتشح بثوب الجمال الفني، ويحوي فرائد الصور، ويمثل صورة ناصعة للمستوى الراقي لبيان الصحابة والتابعين وبلغاء العرب الفصحاء في عصور الحضارة الإسلامية الزاهية

والحمد لله أولا آخرا

المصادر والمراجع

١. **ابن الأثير:** المثل السائر، تحقيق بدوي طبانة، ط١، دار الرفاعي، الرياض.

٢. **إحسان عباس:** تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة، ط ١، بيروت، ١٣٩١هـ.

٣. **أحمد الشايب:** الأسلوب، مكتبة النهضة المصرية، ط ١٣، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٤. **أحمد مختار عمر:** معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، ط ١، ١٤٢٩هـ.

٥. **ابن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب المتوفي ٦٢٦هـ:** مفتاح العلوم، حققه وضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧هـ.

٦. **الجرجاني:** دلائل الإعجاز، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، ط١، د.ت.

٧. **حسين علي محمد حسين:** التحرير الأدبي. مكتبة العبيكان، ط ٥، ١٤٢٥هـ.

٨. **ابن رشيق القيرواني:** العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط ٥، ١٤٠١هـ.

٩. **سيد قطب:** في ظلال القرآن، دار الشروق، ط١٢، القاهرة، ١٤٠٦هـ.

١٠. **صابر عبد الدايم،** آفاق النصر الشعري، دار الكتاب الحديث، ط١، القاهرة، ١٤٣٣هـ.

١١. **صحيح البخاري:** باب القصد والمداومة على العمل، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار النجاة، ١٤٢٢هـ.

١٢. **عبد الرازق بن حمودة القادوسي:** أثر القراءات القرآنية في الصناعة المعجمية تاج العروس نموذجاً، رسالة دكتوراه بإشراف الأستاذ الدكتور: رجب عبد الجواد إبراهيم، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة حلوان، ١٤٣١هـ.

١٣. **عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني الدمشقي:** البلاغة العربية، الدار الشامية، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ.

١٤. **عبد المتعال الصعيدي:** بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، ط ١٧، ١٤٢٦هـ.

١٥. **أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني:** الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق: محمد حسين شمس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ.

١٦. **عزة شبل محمد:** علم لغة النص، النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، ط١ القاهرة، ١٤٢٨هـ.

١٧. **أبو عمر شهاب الدين أحمد بن عبد ربه المعروف بابن عبد ربه الأندلسي:** العقد الفريد المتوفي:٣٢٨هـ، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٤٠٤هـ.

١٨. **عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ:** البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

١٩. **قدامة بن جعفر:** نقد النثر، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٤٠٤هـ.

٢٠. **محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي:** المعروف بخطيب دمشق، ٧٣٩هـ: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق، محمد عبد المنعم خفاجي، دال الجيل، ط ١، بيروت.

٢١. **محمد عبد العال محمود يونس:** في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، الشركة المصرية العالمية لونجمان، الإسكندرية، ١٩٩٦م.

٢٢. **محمد محمد أبو موسى:** خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، مكتبة وهبة، د.ت.

٢٣. **محمد محمد أبو موسى:** دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ١٤٢٩هـ.

٢٤. **ابن منظور:** لسان العرب، دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٤١٤هـ.

٢٥. **أبو هلال الحسن بين عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحي بن مهران العسكري:** ديوان المعاني، دار الجيل، بيروت، د. ت.

٢٦. **نجوى صابر:** دراسات أسلوبية، وبلاغية، دار الوفاء، ط١، الإسكندرية، ٢٠٠٨م.

٢٧. **يحيي بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلوي الطالبي الملقب بالمؤيد بالله:** الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، المكتبة العصرية، ط ١ بيروت، ١٤٢٣هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١٧
التمهيد	٢٠
المبحث الأول: جماليات المضمون	٢٣
الوعظ والتذكير	٢٣
التربية الروحية وتهذيب الأخلاق	٣٠
السياسة والوعظ بإحسان السيرة وصلاح النفس	٣٧
المبحث الثاني: جماليات الشكل	٤٥
الألفاظ	٤٥
الأسلوب	٥٤
الصورة	٦١
الإيقاع	٦٦
الخلاصة	٦٩
فهرس المصادر والمراجع	٧٠
فهرس الموضوعات	٧٣